



# مَحَاضِرُكَ حَوْلَ نَهْرِ النَّاسِ

كولونتاي

الكساندرا

٨ مارتن التورنة

المركز الماركسي - اللينيني للدراسات والأبحاث والتكوين

## تقديم

المحاضرات الأربع عشرة التي أقيمتها في جامعة سفيان دلوف في لينينغراد في ربيع 1921 (پسان-أیار-حزیران) كانت موجهة إلى طالبات يتهيئن للعمل في قطاعات نسوية. وقد دون جزء من هذه المحاضرات بطريقة الاختزال، وتوليت شخصيا كتابة الجزء الآخر في خريف 1921 بالاعتماد على ملاحظاتي المسجلة.

كان هدفي في هذه المحاضرات أن أعطي الطالبات رؤية إجمالية أساسية عن الموقف الماركسي من قضية النساء - على نحو بسيط وسهل الفهم - وأن أبرز، في المحاضرات الأربع الأخيرة على وجه التحديد، التحولات التورية لشروط الحياة وضع المرأة الجديدة في الدولة العمالية. وأعني بذلك الاعتراف بها عضوا كاملا الحقوق في المجتمع. فوضع المرأة الجديدة لم يقد إلى تقييم جديد وإنما إلى حقوقها السياسية والاجتماعية فحسب بل أيضا إلى تحول عمق في العلاقات بين الرجل والمرأة.

وقد برز ذلك بوضوح في عام 1921 عندما واجهت الثورة، المنتقلة من شبوغة الحرب إلى السياسة الاقتصادية الجديدة، انعطافا حاسما. فاستوى تلزم سيرورة التحرر من التقليد البورجوازي أصبح أكثر وضوحا من السابق، بفضل النتائج المترتبة على السياسة الاقتصادية الجديدة في الاتحاد السوفيتي. خلال سنوات الثورة الثالثة جرى تحطم الركائز الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع البورجوازي، وبذلك مساع دائمة لإرساء قواعد المجتمع الاشتراكي، الأجراءات السلامة حكمت بالبلدان، وبسرعة فائقة، على التقليد القديمة. وقد برزت مكانها أنماط من التجمعات الإنسانية متغيرة بجديتها الجذرية. فضوز الأسرة البورجوازية لم يعد قرارا محظيا، والمرأة بعدها المجتمعي واللازم للمجتمع، بانت تواجه شروط حياة جديدة كل الحلة. ففي حين كانت في الماضي تحت تصرف أميرتها فحسب، أصبحت هريرة أيضا بجموعات العمل. وهناك ولدت أنماط حياة جديدة، وكذلك أنماط قرآن جديدة؛ كما تبدل العلاقات بين الأولاد والأهل. وفي عام 1921 الخامن ظهرت، بحلة خاصة، عالم تبشر بطريقة جديدة في التفكير، وبدلالات جديدة، وبأخلاق جديدة، وأيضا وعلى الأخص يدور جديد المرأة وبتصور جديد لمعاكتها في المجتمع وفي دوله السوفيات. فعلى ذري المدافع التي كانت تحمي على جبهات متعددة، جمهوريتنا العمالية التورية، سقطت تقليد العالم البورجوازي بعد أن أصبت إصابة قاتلة.

إن العديد من العادات الحياتية والفكرية ومن القراءين الأخلاقية قد زالت اليوم تماما أو هي في طريقها إلى الزوال. وقد عجزت السياسة الاقتصادية الجديدة عن إرجاء التغيرات الطارئة على مستوى الأسرة والعلاقة الزوجية، كما أنها لم تؤد إلى إضعاف مكانة المرأة داخل الاقتصاد السوفيتي. لكن في ذلك الحين لم تكن انفصال الحياة الجديدة التي عرفتها العلاقات في الحرب حتى عام 1921 قد انعكس على طريقة عيش غالبية النساء. فالشروط الاجتماعية الجديدة، وبالتالي وضع المرأة، مرتبطة على نحو وثيق ببنية النظام الاقتصادي وهيكته. فتطور الإنتاج الاشتراكي يقود إلى تفكك الأسرة التقليدية ويوفر للمرأة وبالتالي تحررها وحرية متعاقبتين باطراد. لكن بما أنه من المستحيل تجنب بعض الالتواءات والتعرفيات في تشريح مجتمعنا الاشتراكي، فهذا يعني بطبيعة الحال أن سيرورة تحرر المرأة الواسعة قد توقف لفترة من الزمن.<sup>1</sup>

إن وضع النساء العاملات وتفوزهن السياسي لم يعودا اليوم قليلين للمقارنة بالشروط السلامة في عام 1921. الواقع أن عاملاتنا وفلاحاتنا قد نجحن، بمساعدة الحزب البلشفي، في النجاح عن مكتب سترات الثورة الأولى، وفي توسيع حقوق المرأة العاملة وتوظيفها، وإن بنجاح متأمل. ولا ريب في أن القرى الاجتماعية التي كانت قد أفلحت في فرض الزامية العمل على نساء سائر الفئات الاجتماعية، بهدف خلق الشروط الموضوعية لتحول الأسرة وعادات الحياة، قد تراجعت اليوم وضفت شفها، وذلك من جراء السياسة الاقتصادية الجديدة بلا جدال. فالتحيرات الاقتصادية والسياسية لم تعد تحصل اليوم تحت ضغط الجماهير وتعيشهما وإنما، على العدى البعيد، تحت الإشراف الواعي للحزب. ومع الأسف، هذا يعني، عمليا، إن الحزب لن يفرض التغيرات إلا عندما تصبح مكاتب الثورة عرضة للخطر.

\* \* \*

لقد عانت العزم على عدم تعديل الطبعة الأولى لمحاضراتي، ولا حتى على تكميلها. فكل تعديل على ضوء الشروط الحالية سيترن عنها قيمتها المترادفة ككتابه على أجواء العمل السلامة آنذاك، وعلى وقائع تنسخ في المجال أيام تقدير تفاقم لوساعة الثورة، وتحديد عياني لوضع المرأة العاملة في الجمهورية العمالية.

ويبدو لي بوضوح أن كتابي لا يقدم إلا مساهمة جزئية في حل قضية المرأة في مرحلة مختلفة من الثورة.

<sup>1</sup> إن السياسة الاقتصادية الجديدة التي كانت تهدف إلى تحرر المجتمع الروسي من العناصر الاقتصادية لشبوغة الحرب لم تهم في الواقع بتحسين الشروط المرضوية المخروبة لاتخاذ المرأة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. انظر المحاضرات 10 - 14.

مع ذلك قررت أن أنشر هذه المحاضرات في شكلها الأولى. فلما مقتضي تعلماً بأن دراسة الماضي وفهمه – ولاسيما التحليل التاريخي لوضع المرأة في علاقتها بالتطور الاقتصادي – يمكن أن يسهلان فهم مهنتنا الحالية وأن يساعدا في تدعيم الرؤية الاشتراكية للعالم. كذلك فإن دراسة الماضي وفهمه يمكن أن يساعدان الطبقة العاملة في بحثها عن أقصر النزوب المؤدية إلى التحرر الشامل وغير العشوّر لنساء العالمات.

ألكسندر كولونتساي، أوسلو 1925

## **المحاضرة الأولى: وضع المرأة في الشيوعية البدانية**

نستهل اليوم سلسلة من المحاضرات تعالج المسئفين التاليين: وضع المرأة بحسب تطور مختلف أشكال المجتمع الاقتصادي، و انعكس وضع المرأة في المجتمع على وضعها داخل الأسرة. فهذا العلاقة الوثيقة والراسخة تجدها في سائر المراحل الوسيطة للتطور الاجتماعي - الاقتصادي، وبما أن عاملين في هذا الصناع نساء العمل والتلاحم بين قصبة المجتمع الجديد المدعومات لأن يحيى فيها، فليكن أن تدرك هذه العلاقة جيداً. ولسوف تواجههن باستمرار الاعتراض التالي: من العيب تغير أي شيء في وضع المرأة وفي شروط حياتها بهذه الشروط تحددها خصائص جنسها. وإذا ما اعتبرتمن على احتفظنا النساء، و سعيمن إلى تحريرهن من نير حياة الأسرة، وإن طالبين بمزيد من المساواة في الحقوق بين الجنسين، ثبّت على ساميكن الحجج البالية القائلة: «إن غياب حقوق المرأة و لا مساواتها مع الرجل أمر يطلعها التاريخ، وهي وبالتالي غير قابلة للزوال إن خضوع المرأة و انتصاراتها للرجل قديمان قدم الزمن، لذا لا أمل في تغيير وضع المرأة. هكذا عاش أجدادنا و هكذا سيعيش أبناؤنا و من بعدهم أحفادنا». ولسوف نستعين بالتاريخ نفسه لمحض هذه الحجج: تاريخ تطور المجتمع البشري، و معرفة الماضي و الطريقة التي تم وقفها عند تلك العلاقة بين الرجل و المرأة. فيمـدـ أن تطـلـعـ على شـروـطـ الـحـيـاةـ التـيـ كـانـتـ سـائـدةـ قـبـلـ الآـفـ السـنـينـ، سـيـتـكـونـ ليـكـنـ يـقـنـ رـاسـخـ أنـ غـيـابـ حـقـوقـ الـمرـأـةـ وـ خـوـعـهـ الـعـبـودـيـ ماـ كـانـتـ مـاـ كـانـتـ مـعـهـ مـعـيـزـ وـ فـقـدـ تـسـاوـيـ الرـجـلـ وـ الـمرـأـةـ فـيـ الـحـقـوقـ فـيـ بـعـضـ الـعـراـقـ الـتـارـيـخـيـ. وـ فـيـ مـراـجـلـ الـتـارـيـخـيـةـ وـ فـيـ مـراـجـلـ الـتـارـيـخـيـةـ بـوـضـعـ مـعـيـزـ وـ فـقـدـ تـحـقـقـهاـ حـقـوقـ الرـجـلـ.

لو استعرضنا بذلك وضع المرأة الفتوول باستقرار خلال مختلف مراحل التطور الاجتماعي، لانضج لنا أن الغياب الحالي للحقوق المرأة، و عدم استقلالها ذاتياً، وصلاحيتها المحدودة داخل الأسرة والمجتمع ما هي بحال من الأحوال صفات فطرية خاصة «بـطبيعة» المرأة، قلص من الصحيح أن النساء هن دون الرجال نكاء، كلما إن تبعة المرأة و علم تحررها لا يجدان تعليلاً لهما في سمات «طبيعة» هن عورمة، وإنما في طبيعة العمل الوكلل إلى المرأة في مجتمع محدداً أطلب هناكن أن تقرأن بكتير من الفعن الفصول الأولى من كتاب بسييل: المرأة و الاشتراكية، فيبيل يوضح فيها الموضوعة القاتلة أن هناك تطبيقاً وثيقاً و عضرياً بين مشاركة المرأة في الإنتاج و وضعها في المجتمع، وهذا بالختصار، ضرب من قانون الاجتماعي-اقتصادي يعني أن لا يغيب عن آذنهنkin أبداً فهو قفين بلن يسهل عليهم مشكلات التحرر الشعوري للمرأة، و كذلك علاقتها بالعمل، بعضهم يتوهم أن المرأة كانت في عصور الهمجية القديمة تعانى وضعاً أشد بؤساً حتى من وضعها الحالي، وأنها كانت تعيش حياة عبودية حقيقة، وهذا خطأ، و من الخطأ كذلك الاعتقاد بأن تحرر المرأة مقتصد بفهم الثقافة والعلم، وأن حرية النساء مرتبطة بتقدم الحضارة، وحدهم ممثلو العلم البورجوازي يملكون ذلك، فلا الثقافة و لا العلم قادران على تحرير المرأة، وإنما النظام الاقتصادي-الرأسي الذي يسع للمرأة بإيجاز عمل منتج و مفيد للمجتمع، والاشتراكية هي نظام اقتصادي من هذا النوع.

إن وضع المرأة ينجم دوماً عن نفط العمل الذي تؤديه في مرحلة محددة من تطور نظام اقتصادي خاص. ففي مرحلة الشيوعية البدائية، في تلك المرحلة السحيقة التي لم تعرف الملكية الخاصة والتي كان البشر أيامها يعيشون على وجوههم في جماعات صغيرة، لم يكن هناك اختلاف بين وضع الرجل ووضع المرأة. فقد كان الناس يقتلون يومياً من ثمار الصيد وقطاف. وفي تلك الحقبة من تطور الإنسان البدائي، أي قبل عشرات الآلاف أو بالأحرى ملايين السنين، كانت واجبات الرجل والمرأة وأعباءهما واحدة. وقد أثبتت أبحاث العلماء الأثريين بوجوههن أنه في غير تطور البشرية، أي في مرحلة الصيد والقطاف، لم تكون هناك فوارق تذكر بين الصفات الجسدية للرجل والمرأة، وأن كليهما كان يتعذر بقوه ومرتونة شبه متعالتين؛ وهذه واقعة هامة تستحق التسجيل. ونسمة ميزات نسوية عديدة كالصدر الكبير، وخصور التحليل، وأنسكال الجسم المكورة، وضعف النمو العضلي، لم تتمو وتنطمر إلا في وقت متاخر جداً، مع تكثيف المرأة دور "الغفرحة" وتأديتها إنتاج الأزية جيلاً بعد جيل.

ولدى الشعوب البدائية الراهنة لا تزال المرأة شبيهة بالرجل، لا تتميز عنه تعييناً ملحوظاً فلبثها صغيران، وحوضها ضيق، وعظامها ضلبة وحسنة التكوين. وكذلك كان الحال في مرحلة الشيوعية البدائية حيث كانت المرأة تشبه الرجل جسدياً وتحتفظ بالقدرة على التحمل.

وما كان الإنجلب يعطى المرأة طويلاً عن أعمالها المعهودة، أي عن الصيد وقطف التمار مع بقية أفراد القبيلة. وكانت المرأة ملزمة بحد هجمات العدو الأذى تذاك، أي الحيوان المفتر من اسرة سافر أفراد القبيلة، من أشقاء وشقيقات، من أبواء وأبناء، و لم تعرف تلك المرحلة ظاهرة خضوع المرأة للرجل، و لا الحقوق المتميزة لكل منها. والواقع، لم تكون شرطوط تلك التمييز قد توفرت بعد لأن الشرع و القانون و تقاسم الملكية كانت أموراً محبولة تماماً آنذاك. ولم تكن المرأة خاضعة للرجل من طرف واحد لأن الرجل كان خاضعاً بيوره للجماعة، أي القبيلة. فالقبيلة هي التي كانت تحدد جمع القرارات، و من كان يرفض الانصياع لإرادة القبيلة كان مصيره الهلاك، فلما أن بعثت جوحاً وإما تقرسه الحيوانات، فسيل الإنسان الوحش لحماره نفسه ضد أخرى و آخر على آنذاك كان سبيل التخلص من الجماعة. وكلما اشتد تلاحم القبيلة، ازداد خضوع الآخرين لإرانتها. و لكن كان التعامل و المساواة الطبيعيان يضمنان تلاحم القبيلة، فقد كان يشكلان أسلحة مثل الدفاع عن النفس. لهذا السبب استحال تماماً، خلال المرحلة

الأولى من تطور البشرية الاقتصادي، أن يخضع عضو في القبيلة لأخر وأن يتبع له. و في عصر الشوعية البدائية لم تعرف المرأة لا العروبة، ولا التبعية الاجتماعية، ولا الاوضطهاد. كانت البشرية تجهل كل شيء عن الطبقات، و عن استغلال العمل، و عن الملكية الخاصة. وقد عاشت هكذا طول الآف السنين، بل مئات الآلاف من السنين.

لكن اللوحة تبدل خلال العوائل اللاحقة من تطور البشرية. فالمحوالات الأولى للعمل المتعج و للتقطيم الاقتصادي جاءت نتيجة سيرورة طويلة المدى. فلشروط مناخية و جغرافية، و تبعاً لتوارد القبيلة في منطقة مشجرة أو في سهل شاسع، كانت هذه القبيلة تتحضر أو تزأول تربية المواشي. و قد بلغت أذناك مرحلة أكثر تطوراً من تلك التي عرفتها عندما كانت تعتمد على الصيد والقطاف. وقد تراوحت هذه الأشكال الجديدة من التنظيم الاقتصادي بظهور أشكال جديدة من التجمع الاجتماعي.

سوف ندرس الأن وضع المرأة في قبيلتين عرفاً أشكال تنظيمية مختلفة مع أنهاها تعاصرنا في الزمان. فقد استقر أفراد القبيلة الأولى في منطقة مشجرة تتخللها حقول صغيرة و أصبحوا فالحن مقيمين – أما أفراد القبيلة الثانية فقد عاشوا في منطقة سهوب مع قطعانهم من الجرذين و الخيول و الماعز، و تعلوها إلى تربية المواشي. بيد أن هاتين القبيلتين ظلتا مع ذلك في مرحلة الشيوعية البدائية و لم تعرف الملكية الخاصة. الحال أن وضع المرأة في كلتا القبيلتين لم يهد واحداً. ففي القبيلة التي كانت تزأول الزراعة، لم تكن المرأة تتبع بمساوية كاملة في الحقوق فحسب، بل كانت أحياناً تحمل مكانة الصدار. أما لدى الرعاء الرجل بال مقابل، فإن ظاهرة استبعاد المرأة وإخضاعها وأوضطهادها أخذت تتطور بسرعة مفتوحة.

لقد خضعت الأبحاث التي تناولت التاريخ الاقتصادي، لفترة طويلة من الزمن، للتصور القائل بأنه كان محظياً على البشرية أن عمر بسائل مراحل التطور الاقتصادي و درجاته. فقد كان على كل قبيلة، حسب هذا التصور، أن تنتقل من الصيد إلى تربية المواشي، ثم الزراعة، و أخيراً إلى العمل الحرفي و التجارة. بيد أن أبحاثاً مسوسيولوجية حديثة أثبتت أن بعض القبائل انتقل مباشرةً من مرحلة الصيد و القطاف البدائية إلى مرحلة الزراعة دون أن يمر بمرحلة التربية. وقد تحكمت الشروط الجغرافية والطبيعية بهذا الانتقال.

بالختام، هذا يعني أن نعطين مختلفين تماماً من التنظيم الاقتصادي، الزراعة و التربية، قد ظهرتا و ظهوراً في عصر واط في شروط طبيعية مختلفة. فنساء القبائل التي كانت تزأول الزراعة كن يكتفين بوضع الأطفال بكثير. حتى أن بعض القبائل الفلاحية كانت تعيش في خلل نظام أعمى أي (matriarcate) كلمة يونانية تعني هيمنة الأم: فالأم هي التي تحكم استقرار القبيلة). بالمقابل، فقد تطور النظام الأبيوي، نظام هيمنة الأب – الأكبر سناً في القبيلة – لدى الشعوب التي اختارت حياة البداوة واعتمدت على تربية الحيوانات. لم هذا التباين، و عما عساه يكتفي؟ إن مرد هذا التباين إلى دور المرأة في الاقتصاد. فالمرأة كانت المنتجة الأساسية لدى الشعوب البدائية، و هناك أدلة عديدة على أن المرأة هي أول من اكتشفت الزراعة، وعلى أنها كانت، «أول عامل زراعي» عرفه التاريخ. كتاب ماريون وير حقوق المرأة يزورنا بجملة من المعلومات الهامة حول دور المرأة في أول أشكال التنظيمات الاقتصادية. المؤلفة ليست ماركسية، مع ذلك، فإن كتابها غني بالمعلومات، لكنه مع الأسف لم ينشر إلا باللغة الأصلية و لم يترجم إلى أي لغة أخرى.

لقد خطرت فكرة الزراعة للمرأة على النحو التالي: في مواسم الصيد كانت الأمهات، مع أطفالهن الرضع، يضطربون إلى التخلف عن مطاردة القبيصة مع بقية أفراد القبيلة بسبب مشاق رحلات الصيد البعيدة. ولما كان على الأمهات أن يتذللن طويلاً عرنة الصيدليين للحصول على طعام، فقد رجعن يكتفين عن وسيلة لتفسين الغذاء لين و لأولادهن. وقد استخلاص الباحثون من ذلك أن المرأة هي على الأرجح أول من عمل في الأرض. فعندما كان زادها من الطعام كانت تبحث، في المكان الذي تستقر فيه عودة بقية أفراد القبيلة، عن حشائش تحتوى على حبوب تصالح للأكل. كانت تأكل من هذه الحبوب و تطعم منها أولادها، لكن فيما كانت تطهّنها بسلنانها – الأشنان هي الطواحين الأولى. سقط بعض منها على الأرض. وعندما عالت المرأة إلى المكان عليه بعده مدة من الزمان اكتشفت أن الحبوب قد نبت. فأستخرجت من ذلك أنه من الفضل لها أن تعود عندما تكون الأعشاب قد نبتت، و أن البحث عن الغذاء الرفيف سيكفيها عذلاً فترا أقل من الجهد والعناء. و هكذا تعلم الناس أن الحبوب التي تسقط على الأرض تنبت من جديد.

وقد علمتهم التغيرات كذلك أن العصا يكون أوفر إذا ما عدروا إلى قلب الأرض قبل الدبار. لكن هذه التغيرات طوتها غير مرأة يدا النساء، لأن المعرفة الفردية لم تصبح ملكاً للقبيلة إلا مع ظهورها إلى الجماعة. وكان من الضروري أن توارثها الأجيال التالية، و الحال أن البشرية قد احتاجت إلى الكثير من التفكير والتأمل كي تدرك و تستوعب أشياء تبدو في غاية البساطة ظاهرياً. و هذه المعرفة لم تترسخ في وعي الجماعة وإبراكها إلا بعد أن تترجمت إلى ممارسة يومية.

لقد كانت للمرأة مصلحة في عودة العشيرة أو القبيلة إلى المحطة القديمة حيث كان ينتسب العشب الذي زرعه، لكنها لم تكن قادرة على إيقاع رفقها بصواب خطلة تنظيمها الاقتصادي. لم تكن قادرة على إقناعهم بالكلام لأنّ سمع وراء الترويج لقواعد و عادات وآراء تخدم مشاريعها الخاصة، وهذا ظهر العرف التقليدي الذي سرعان ما ارتدى طبع القرون: إنما كانت العشيرة، في سعيها وراء الطرائد، قد تركت الأمهات والأولاد في أرض تقع على مقربة من نهر و في دور القرى البدن، فإن الآلهة تأمر أفرادها بالعودة إلى هذا المكان بعد بضعة أشهر. و من انتهك هذا القانون و ثذر عنه، عاقبه الأرواح. و لما اكتشفت القبيلة أن الأولاد يعودون بسرعة أكبر عندما ينتهك هذا القانون، أي عندما يمتنع أفرادها عن العودة إلى «المكان الذي ينتسب فيه العشب»، راحت تقييد بتطبيق هذا العرف و توفر من «حكمة» النساء. و سرعان ما توصلت المرأة الساعية وراء تحقيق أكبر قدر من الإنتاج مقابل أدنى قدر من العمل، إلى الملاحظة التالية: كلما كانت الأرض كثيرة المسام والمنافذ، جاء المحصول أوفر. لذا راحت تقلب التربية بغضن شجرة وتحثث فيها أثاماً و حبراً صغيراً، وهذا الاكتشاف أعطى أفضل النتائج ووفر على الرجل مخاطر التعرض للحوانات المفترسة خلال تجواله في الغابات.

تدين البشرية للمرأة إنن بالاكتشاف الزراعي، ذلك الاكتشاف الذي كان يبلغ الأهمية في تطورها الاقتصادي. وهذا الاكتشاف هو الذي عُين، لفترة طويلة من الزمن، مكانة المرأة في المجتمع والاقتصاد، ورفتها على رأس الأمم التي كانت تزاول الزراعة، ونمة علاً كبير من الباحثين يعزى إلى المرأة أيضاً استخدام النار كثمرة اقتصادية.

فكما ذهبت القبيلة إلى الصيد أو إلى الحرب تاركة وراءها الأمهات والأطفال، اضطرب هؤلاء الآخرين إلى حلبة أنسنة من الحيوانات المفترسة. أما الفتيات والنساء اللواتي لا أولاد لهن فقد كن يرثلن مع بقية أفراد القبيلة. وكان الإنسان البدائي قد اكتشف، عن طريق التجربة الشخصية، أن النار هي أفضل حام من الحيوانات المفترسة. وكان قد تعلم كيفية إيقاد النار عندما راح يحصل الأحجار ليصنعن منها الأسلحة والأدوات المفترسية الأولى. إنن فلتذهب عملية الأمهات والأولاد، كانت القبيلة تفقد النار قبل ذهابها إلى الصيد، والحفاظ على هذه النار مشتبطة كان وجهاً مقسماً بالنسبة إلى الأمهات. وكانت النار في نظر الرجال قوة محبقة، خفية، مقدسة. أما النساء اللواتي كن يتعاملن باستقرار مع النار، فقد أفنن خواصها وميزاتها وسخرنها لتسهيل أعمالهن وتوفير جهودهن. فقد تعلمت المرأة هنال أن تشوّي أنفها من الأجر لتزيد من مقاومتها وأن تطهو الطعام لتحافظ عليها العدة أطول. إن المرأة التي قدمت لها الأمومة إلى دارها، روضت النار وجعلت منها خاصتها، لكن قوائين التطور الاقتصادي بذلك هذه العلاقة فيما بعد، فإذا ب النار الموقـد الأول تحكم على المرأة بالعوـدية، مجردة إياها من سائر حقوقها وحاجلة منها أسرة مطبخها.

إن الفرضية الثالثة أن الأكواخ الأولى قد شيدت من قبل النساء للتحفـاء مع أولادهن من الثقلـات المتـاخـية، ليست خالية من الصحة. الحال أن النساء لم يشيدن الأكواخ ويزرعن الأرض فحسب، بل كن أيضاً أول من مارسن العمل الحرفي. فالغزل والنسج وصنـع الآنية الفخارية، كلـها اكتـشـافـات نـسوـيةـ، أماـ الخطـوطـ التيـ كـاتـتـ النـسـاءـ يـرـسـعـنـهاـ عـلـىـ الآـنـيـةـ الفـخـارـيـةـ، فـيمـكـنـ اـعـتـبارـهاـ الـمـحـاـلوـلـاتـ الـقـبـيـلـةـ الـأـوـلـيـ الـتـيـ عـرـفـتـهاـ الـبـشـرـيـةـ الطـورـ الـأـوـلـ لـلـنـفـ.ـ وـكـاتـتـ النـسـاءـ يـجـعـنـ الـأـعـشـابـ،ـ وـقـدـ تـعـلـمـ تـعـيـزـ خـصـائـصـهاـ وـالـإـفـادةـ مـنـهـاـ؛ـ فـكـاتـ جـادـلـتـ أـوـلـاـ منـ مـارـسـ الطـبـ.ـ وـهـذـاـ التـارـيخـ،ـ أـوـ بـالـأـخـرـ هـاـ قـبـلـ تـارـيخـنـاـ تـحـنـ،ـ بـقـيـ مـحـفـظـاـ فـيـ الـأـسـاطـيرـ الـقـيـمـةـ وـفـيـ الـمـعـقـدـاتـ الـشـعـبـيـةـ.ـ فـالـلـوـنـاتـ الـأـوـلـيـ،ـ الـذـيـ بـلـغـتـ تـقـافـتـهـمـ ذـرـوـتـهـاـ قـبـلـ الـأـفـيـ عـامـ،ـ لـمـ يـقـرـرـوـ اـسـكـلـيـوسـ الطـبـ الـأـوـلـ وـإـنـاـ أـمـهـ كـورـونـسـ.ـ وـلـأـيـ الـفـلـيـكـيـنـ الـأـكـوـنـيـنـ كـاتـتـ الـإـلـهـةـ أـيـ EIRـ،ـ هـيـ الـطـبـ الـأـوـلـيـ.ـ وـحـتـىـ فـيـ أـيـامـنـاـ هـذـهـ،ـ كـثـيرـاـ مـاـ تـصـلـفـ فـيـ الـقـرـىـ نـسـاءـ عـجـالـاـ مـشـهـورـاتـ بـتـكـاهـنـ وـتـعـزـىـ إـلـيـنـ قـنـاتـ سـحـرـيـةـ.ـ وـأـبـوـاتـ الـمـعـرـفـةـ الـتـيـ فـحـصـتـهـاـ جـادـلـتـ هـذـهـ ظـلـتـ مـوـصـلـةـ فـيـ وـجـهـ أـنـوـاـجـهـنـ الـفـنـ كـاتـلـاـ غـالـبـاـ ماـ يـذـهـبـونـ إـلـىـ الصـيدـ أـوـ إـلـىـ الـحـرـبـ،ـ أـوـ يـقـوـمـونـ بـأـعـمـلـ تـقـرـضـ قـرـةـ عـضـلـيـةـ مـيـزـةـ.ـ وـلـمـ يـكـنـ لـهـمـ هـنـقـعـ مـنـ الـوـقـتـ الـتـامـلـ أـوـ لـمـ لـاحـظـ الـأـمـوـرـ بـهـنـوـهـ وـتـرـيـثـ.ـ وـلـمـ يـكـنـ فـيـ وـسـعـهـمـ بـالـتـالـيـ أـنـ يـجـمعـواـ وـيـتـقـلـلـ مـعـطـرـومـاتـ عـنـ الـتـجـارـبـ الـقـيـمـةـ حـوـلـ طـبـيـعـةـ الـأـشـيـاءـ.ـ وـلـيـسـ مـنـ قـبـلـ الـمـصـالـفـةـ إـنـ كـاتـتـ كـلـمـةـ «ـالـسـاحـرـةـ»ـ فـيـ الـرـوـسـيـةـ مـشـتـقةـ مـنـ كـلـمـةـ «ـالـمـعـرـفـةـ».ـ فـلـمـعـرـفـةـ كـاتـتـ عـلـىـ الـدـوـامـ مـنـ اـمـتـياـزـاتـ الـمـرـأـةـ الـتـيـ كـانـ الـرـجـلـ يـخـشـاـهـ وـيـخـمـرـهـاـ لـهـذـاـ السـبـبـ لـمـ تـكـنـ الـمـرـأـةـ فـيـ مـرـحلةـ الشـيـعـةـ الـبـدـائـيـةـ.ـ أـيـ فـيـ الـبـشـرـيـةـ مـتـسـاوـيـةـ مـعـ الـرـجـلـ فـحـسـبـ،ـ بـلـ كـاتـتـ مـتـفـوـقةـ عـلـىـ إـيـضاـنـ مـفـضـلـ سـلـسلـةـ مـنـ الـاـكـتـشـافـاتـ وـالـاـبـتكـارـاتـ الـقـيـدـةـ الـتـيـ سـاهـمـتـ فـيـ تـطـوـرـ الـبـشـرـيـةـ الـاـقـصـلـيـ وـالـاـجـعـمـاعـيـ.ـ الدـورـ الـذـيـ أـنـتـهـيـ الـمـرـأـةـ إـنـ،ـ فـيـ مـراـحلـ مـحـدـدـةـ مـنـ تـارـيخـ الـبـشـرـيـةـ،ـ مـنـ أـبـلـ تـطـوـرـ الـعـلـومـ وـالـتـقـافـةـ،ـ كـانـ أـهـمـ بـكـثـيرـ مـنـ ذـلـكـ الـذـيـ أـفـرـ لـهـاـ بـهـ الـعـلـمـ الـبـيـوـجـوـزـيـ الـمـحـضـ بـالـأـكـارـ الـمـسـيـقـيـةـ.ـ فـالـلـهـمـاءـ الـأـنـتـرـوـبـوـلـوـجـيـوـنـ مـنـذـ الـمـخـتـصـوـنـ بـدـرـاسـةـ أـصـوـلـ الـبـشـرـيـةـ،ـ لـمـ يـتـكـرـرـ دـورـ الـأـنـثـيـ فـيـ طـوـرـ أـجـادـانـ أـشـيـاءـ الـقـرـودـ بـاتـجـاهـ الشـكـلـ الـبـشـرـيـ،ـ فـالـقـنـةـ عـلـىـ الـوـقـفـ،ـ الـتـيـ تـعـتـرـفـ بـعـزـةـ الـأـسـلـمـيـةـ الـكـافـنـ الـبـشـرـيـ،ـ هـيـ فـقـحـ مـنـ الـتـرـحـاتـ الـتـيـ حـقـقـتـهـاـ الـأـنـثـيـ.ـ فـقـدـ تـعـلـمـتـ الـأـنـثـيـ،ـ فـيـ تـصـدـيـهاـ لـهـجـعـاتـ الـعـدـوـ،ـ أـنـ تـعـهـيـ نـفـسـهاـ بـلـدـاعـ وـاحـدـةـ وـأـنـ شـدـ بالـأـخـرـ عـلـىـ صـغـيرـهـاـ الـمـقـبـلـ بـعـقـبـهاـ.ـ لـكـهـاـ لـمـ تـكـنـ مـنـ تـحـقـيقـ هـذـهـ الـحـرـكـةـ الـبـهـلـوـنـيـةـ إـلـاـ بـاتـصـابـهـ بـعـضـ الشـيءـ،ـ الـأـمـرـ الـذـيـ سـادـ عـلـىـ زـيـلـةـ حـجـمـ دـمـاغـهـاـ وـقـدـ دـفـعـتـ النـسـاءـ غـلـيـاـهـنـ هـذـاـ الـتـطـوـرـ لـأـنـ الـجـسـمـ النـسـويـ لـمـ يـخـلـقـ الـرـضـعـيـةـ الـعـوـدـيـةـ.ـ فـسـيـلـاتـ الـقـرـدـاتـ لـأـنـ زـيـلـ تـجـهـلـ عـلـىـ أـلـامـ الـوـضـعـ.ـ إـنـ قـصـةـ حـوـاءـ الـتـيـ قـطـفـتـ ثـمـرـةـ شـجـرـةـ الـمـعـرـفـةـ وـالـتـيـ عـوـقـتـ عـلـىـ ذـلـكـ بـأـنـ حـكـمـ عـلـيـهـاـ بـالـإـجـابـ فـيـ الـأـلـامـ،ـ إـنـ هـذـهـ الـقـصـةـ تـعـنـعـ إـنـ بـطـلـيـةـ تـارـيخـيـةـ.

لكـنـ سـوـفـ تـبـداـ يـتـعـلـلـ دـورـ الـمـرـأـةـ فـيـ الـقـبـائلـ الـقـبـائـلـ الـزـرـاعـيـةـ.ـ فـيـ الـبـدـءـ لـمـ تـكـنـ الـمـعـتـجـاتـ الـزـرـاعـيـةـ تـكـفـيـ لـدـ حـاجـاتـ الـقـبـيلـةـ الـغـذـائـيـةـ،ـ لـذـاكـ اـسـتـعـرـتـ هـذـهـ الـأـخـرـيـةـ فـيـ مـعـارـسـ الـصـيدـ.ـ وـقـدـ أـلـىـ هـذـهـ التـطـوـرـ إـلـىـ إـبـدـاعـ تـقـيمـ طـبـيـعـيـ للـعـلـمـ.ـ فـقـدـ تـولـيـ الـتـنـطـرـ الـعـقـيمـ مـنـ الـقـبـيلـةـ،ـ أـيـ النـسـاءـ،ـ مـهـمـةـ تـنـظـيمـ الـزـرـاعـةـ فـيـ حـينـ تـابـرـ الـرـجـالـ عـلـىـ رـحـلـاتـ الـصـيدـ أـوـ الـحـرـبـ،ـ أـيـ نـهـبـ الـقـبـائلـ الـمـجاـبـوـرـةـ.ـ لـكـنـ لـهـاـ كـانـ مـرـبـودـ الـزـرـاعـةـ أـخـلـ بـكـثـيرـ،ـ وـلـمـ كـانـ أـقـرـادـ الـقـبـيلـةـ قـدـ أـخـنـواـ يـفـخـلـنـ عـطـاءـ الـأـرـضـ عـلـىـ خـلـمـ الـصـيدـ وـالـتـهـبـ الـمـحـفـرـةـ بـالـمـخـاطـرـ،ـ فـقـدـ تـحـولـتـ الـزـرـاعـةـ بـسـرـعـةـ إـلـىـ قـاـدـدـةـ الـقـبـيلـةـ الـمـعـصـيـةـ،ـ فـنـ كـانـ الـمـعـتـجـ الـأـسـلـمـيـ فـيـ ذـلـكـ الـاـقـصـلـيـ الـزـرـاعـةـ !ـ كـانـ مـنـ الـطـبـيـعـيـ إـنـ أـنـ تـحـترـمـ الـقـبـيلـةـ الـمـرـأـةـ وـتـقـرـرـ عـلـيـهـاـ،ـ وـحـتـىـ أـيـامـنـاـ هـذـهـ تـوـجـدـ قـبـيلـةـ فـيـ إـفـرـيقـيـاـ الـوـسـطـيـ،ـ قـبـيلـةـ الـبـلـوـنـدـ،ـ الـقـيـدـةـ الـمـعـكـاةـ مـرـمـوـقـةـ،ـ الـمـسـتـكـثـفـ الـأـنـجـيـزـيـ الـمـعـرـفـ دـافـدـيـ لـيـنـخـسـتوـنـ بـرـوـيـ ماـ يـلـيـ عـلـىـ هـذـهـ الـقـبـيلـةـ:ـ «ـإـنـ النـسـاءـ مـعـشـاتـ فـيـ مـجـلسـ شـوـخـ الـقـبـيلـةـ،ـ أـمـ الـمـعـقـدـونـ عـلـىـ الـزـوـاجـ فـعـطـلـيـوـنـ بـالـاتـنـاقـ بـقـرـىـ زـوـجـتـهـنـ وـبـالـعـيـشـ مـعـنـ بـعـدـ إـنـصـامـ رـاسـيـمـ الـزـوـاجـ،ـ وـيـتـعـهـدـ الـزـوـجـ بـتـأـمـنـ سـيـلـ الـعـيـشـ لـأـمـ زـوـجـتـهـ حتـىـ وـفـقـهـاـ،ـ وـوـحـدـهـاـ الـمـرـأـةـ تـمـتـعـ بـعـقـ طـلـبـ الـانـفـسـالـ عـنـ زـوـجـهـاـ وـالـاحـفـاظـ بـلـدـاهـاـ بـعـدـ الـطـلاقـ،ـ وـلـاـ يـحقـ لـزـوـجـهـ اـلـتـزـامـ إـنـ لـمـ يـحـصـلـ عـلـىـ إـنـ زـوـجـتـهـ،ـ وـيـدـوـيـوـنـ بـعـصـيرـهـمـ،ـ وـغـيرـ رـاغـبـينـ فـيـ الـتـفـرـدـ عـلـىـهـ.ـ وـالـوـاقـعـ أـنـ الـرـجـلـ الـذـيـ لـاـ يـتـنـذـ أـوـلـادـ زـوـجـتـهـ يـتـعـرـضـ لـضـرـبـاتـهـ وـصـفعـاتـهـ،ـ وـقـدـ تـقـمـ الـزـوـجـةـ عـلـىـ مـعـقـةـ زـوـجـهـاـ بـلـ تـحـرـمـهـ مـنـ الـطـعامـ.ـ إـنـ سـافـرـ أـقـرـادـ الـقـبـيلـةـ مـازـمـونـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ بـالـأـنـصـيـاعـ لـأـوـلـادـ الـرـجـالـ الـمـعـتـجـاتـ بـتـقـديرـ الـجـمـيعـ.ـ وـيـمـيلـ لـيـقـضـيـنـ إـلـىـ الـاعـتـدـادـ بـأـنـ النـسـاءـ فـيـ قـبـائلـ الـبـلـوـنـدـ هـنـ الـلـوـاتـيـ يـمـارـسـ الـسـلـطـةـ،ـ وـالـحـالـ أـنـ هـذـهـ الـقـبـيلـةـ لـاـ تـكـلـمـ اـسـتـاءـ فـرـيدـاـ فـيـ هـذـهـ بـحـثـةـ أـخـرـونـ يـرـكـونـ بـأـنـ النـسـاءـ الـقـبـائلـ الـإـفـرـيقـيـةـ الـلـوـاتـيـ يـمـارـسـ الـأـرـضـ وـيـذـرـنـ،ـ وـيـسـنـ الـأـكـواـخـ،ـ وـيـمـضـنـ حـيـاتـهـنـ فـيـ الـعـملـ،ـ هـؤـلـاءـ الـنـسـاءـ لـاـ

يتفقون بالاستقلالين التام فحسب، بل يغتررون أيضاً بانتهاكات عقلانياً على الرجل. فرجال هذه القبائل يغضّون من عمل زوجاتهم ويتذمّرون بهمّيّتهم وآثرتهم». رجل اهتمامهم، حسب قوله العيد من البحثة، «لحب البقر و الترترة».

إن مرحلة ما قبل التاريخ تعطينا أمثلة عديدة عن سيطرة المرأة فالنسل كان إلى الأب لا للأب، لدى العديد من القبائل التي تعيش على الزراعة، ومع ظهور الملكية الخاصة راحت البنات، لا البنين، يرشن أهلين، وأتنا لجند اليوم عند بعض الشعوب الجبلية في التقىناس بقابلاً من هذا النظام القائم.

راحت سلطة المرأة لدى الأقوام الزراعية تدعم باطراز فلمرة هي التي كانت تحفظ على التقليد والأعراف وتصونها، وهي التي كانت بالتالي تعلى التوانين. وكان احترام هذه التقليد والأعراف يشكل ضرورة حيوية. فلولا هذا الاحترام لاستحل حمل أفراد العشيرة على القيد بالقواعد التي تفرضها المهام الاقتصادية. فالناس في تلك الأيام كانوا عاجزين تماماً عن الاستعنة بالمنطق والعلم لشرح الأسباب التي تدفعهم إلى بذل الجهود في فترة محددة وإلى حدود موسفهم في فترة محددة أخرى. لذا كان أسهل عليهم بكثير أن يقولوا: «هذا تقليد سلاط عننا، وقد فرضه أجداننا، وما علينا إلا أن نتفقده». وكل من يعارض هذا التقليد مجرم في نظرنا». وكان الحفاظ على هذه التقليد والأعراف مهم شيخات القرية، أو من مهام النساء والمهات من صاحبات الحكمة والخبرة.

إن تقسيم العمل لدى القبائل التي كانت تمارس الصيد والزراعة في أن واحد قد تميّز عن الواقع التالية: تربية النساء، المسؤوليات عن الإنتاج وعن تنظيم أمكّة المسكن، لفتراتهن على التفكير والملحوظة، وتربية الرجال، المهتمين بشؤون الصيد والعرب، لطاقتهم ومهاراتهم الصيدية. وفي هذا الطور من نمو البشرية كانت المرأة متفرقة فكريًا على الرجل. وكانت، بطبيعة الحال، تحتل مكانة مهيمنة داخل مجتمعها الذي كانت تسرده قوانين نظام الأسرة.

يجب أن لا ننسى أن الإنسان في تلك العصر كان عاجزاً عن الاندماج، لذلك كانت الأيدي العاملة تتمثل «القرفة الحية» للعمل ومصدر الإزدهار. وكان إيقاع تكاثر الشعب بطبيعته، نظراً إلى لانخفاض نسبة الولادات، لذا كانت الأنثوية موقرة، وكانت المرأة - الأم تحمل مكانتة مرموقة لدى القتيل البدائي. أما انخفاض معدل الولادات فكان مردده، جزئياً، إلى إلاحة العلاقات الجنسية بين المحارم و إلى الزيجات بين الأهل المقربين. فقد اتضح أن الزيجات بين أقرباء العصب الواحد تتسبب في الإجهاض وتحول دون نصر الأسرة الطبيعية.

في مرحلة الصيد و القطاف ما كان احتياطي القبالة من القرفة العاملة يؤدي أي نور. بالعكس، فكلما كانت القبالة تتم في وقت متأخر، كانت مشكلة تفسخ الغذاء لأفراطها تزداد تعقيداً وصعوبة. لذا لم تقل الأمومة لدى المرأة نفسها من التقدير طوال فترة اعتماد البشرية على نتاج الصيد و القطاف.

لقد كان الأولاد والشيوخ يشكلون عبئاً ثقيلاً على كاهل القبيلة، وكانت القبيلة تحاول التخلص منهم بشكل أو بأخر، فلا تجدهم في بعض الأحيان حتى عن افتراسهم، أما القبائل التي كانت تومن سبل عيشها عن طريق العمل المنتج، أي قبائل العزار عن، فكانت بالمقابل إلى الشغيلة، وقد اكتسبت المرأة أهمية خاصة لدى هذه القبائل، لأنها هي التي تتبع على وجه التحديد قوى عمل جديدة، أي تتبع الأولاد، وقد أحبطت الأمومة لدى هذه القبائل بإجحاف لبنيها حتى أن أكبر الآلهة في عدد من الديانات الوثنية كان إمرأة: الإلهة إيزيس في مصر، وفي اليونان الإلهة غايا، أي الأرض، مصير الحياة يرثها في نظر الأقباط.

لقد أثبتت بالخون<sup>2</sup>، المعروفة ببلحظة حول نظام الأسرمة، أن كفة المؤذنات كانت ترجع كفة المذكور في الديانات البدائية، وهذا ما يكشف عن مكانة المرأة الخاصة لدى تلك الشعوب. فالأرض والمرأة كانتا المصادرتين الأولىن والأساسين لكل ثروة. وقد تماطلت خصائصهما وأمتعت. فالأرض والمرأة كانتا تطلقان الحياة وتضمنان استمرارها. فمن يؤذ المرأة يؤذ المرأة أيضاً. وأكثر الجرائم إثارة للاستهجان كانت تلك المرجحة إلى الأم، والكثبة الأولى، أي خدم الآلهة الوثنية، كانوا أيضاً نساء. وكانت الأمهات هن اللواتي يتحفزن القرارات بشأن أولادهن، لا الآباء. ونحن نظر على مخلفات من سيطرة النساء هذه في أساطير الشعوب وتقليلها، إن في الشرق وإن في الغرب. يvid أن المرأة لم تتزع هذه المكانة المترفة لدى القبائل الزراعية بصفتها أمّا، وإنها يصفتها المجتمع الرئيسي في اقتصاد القرية وما زام تقسم العمل قد حتم على الرجل لا يتم إلا بالصلة، المنظور إليه كشاطئ ثالوثي، بينما خص المرأة بزراعة الحقول - العمل الأكثر أهمية في تلك العصر. فلن انتصاع المرأة للرجل وخصوصيتها له كان أمرين غير معكفين.

إن دور المرأة في الاقتصاد هو الذي يحدّد إن حقوقها في الزواج وفي المجتمع. هذا ما نستطيع أن نتبينه بعزم من الوضوح بعدهما تقارن وضع المرأة في قبيلة مزارعو بن مع وضع المرأة في قبيلة من مربي الميراثات الرجال. ولسوف تلاحظن أن ظاهرة واحدة كالأمرمة، أي ميزة من ميزات المرأة الطبيعية، يمكن أن تؤدي إلى تتلاعج متعرضة كلياً في شروط اقتصادية مختلفة.

يصف لنا تأفيطهن<sup>3</sup> حياة الجرمان القديمي. فقد كانوا قبيلة من العاز عن، قوية ومقاتلة. وكانت النساء يخرون النساء ويسخنون إلى آرائهم. وكانت النساء عند الجرمان يتحملن كامل مسؤولية العمل في الحقول. وكانت نساء القبائل الشيشيكية التي عمارت الزراعة يتعتنن بتغذير معلم. فالأسطورة التي نقلت إلينا حول حكمة الأميرة ليوسما تروي أنه كانت لأخيره شفقة تهم بفن النساء

<sup>2</sup> يوهان ياكوب بالخون: رجل فلكون و مؤرخ سويسري (1818-1887)، له دراسات في الأوضاع التقوية في المجتمعات البدائية - م -

<sup>3</sup> نافلطن: مزدوج لاتيني (55-120)، على التاريخ الروماني بقلم و مفراد له (الحرليات) و (التاريخ)، - 2 -

وأخرى ببناء المدن الجديدة وعندما تسللت ليوسا الحكم اختارت شابين ضليعين في شؤون القانون لتجعل منها مستشارتين لها، وكانت هذه الأميرة تحكم بالسلوب اليمقراطي، وتعود إلى شعبها قبل اتخاذها القرارات الهامة وقد أطاح بليوسا فيما بعد بشقيها. هذه الأسطورة تشهد على الصورة الإيجابية التي حفظتها ذاكرة الشعب عن سيطرة المرأة، لكن من نظام الأمومة في الأسطورة الشعبية إلى عصر ميغون و مبارك، لأن القبيلة كانت في ظله لا تزال تعيش حياة جماعية.

لكن ماذا الآن عن وضع المرأة في قبيلة الرعاعة؟

كانت قبيلة الصيادين تتحوال إلى قبيلة رعاعة إذا ما توفرت لها بعض الشروط الطبيعية (أراضي شاسعة، غذب وفيه، قطعان من الأبقار أو من الخيول المتوحشة) و إذا ما صفت بين أفرادها عددا كافيا من الصيادين الأقواء، البارعين والقدامى، القابرين على أسر فريستهم و هي لا تزال حية لا على قطها فحسب، و هذه الصفات كانت وقا على الرجال في المعركة الأولى. أما النساء فقد كان اهتمامهن بالصيد هرقاء، ذلك أن الأمومة كانت تتطلب تقطيعهن عنه لفترات طويلة، لقد كانت الأمومة تفرض على النساء وضعا خاصا، فتحمّض عنها تقييم العمل قائم على تميز الجنسين. فعندهما يذهب الرجل إلى الصيد برفقة العازبات من النساء، كانت الأمهات يمكنن في مرابض القبيلة لرعيه القطعان، وكان عادة على ذلك بتجمين الحيوانات المأسورة، لكن هذه المهمة الاقتصادية كانت ثانوية الأهمية، فكن أنتن في ذلك، فمن كان يسيطر على قبائل القبيلة من وجهة نظر اقتصادية بحثة؟ الرجل الذي يمسر الجاموسة أم المرأة التي تطبّها؟ الرجل بكل تكيد! فيما أن ثروة القبيلة تقوم على عدد الحيوانات المأسورة، فمن يرفع هذا العدد ويزيده كان يعتبر المنتج الرئيسي و مصدر الازدهار بالنسبة للقبيلة.

إن دور المرأة الاقتصادي في قبائل الرعاعة كان على الدوام دورا ثانويا.

و بما أن قيمة المرأة، من وجهة نظر اقتصادية، كانت أقل، وبما إن عملها كان أقل إنتاجية، أي لا يساهم بقدر عمل الرجل في تغذية إزدهار القبيلة، فقد بدأ ينظر إليها على أنها ليست متساوية للرجل. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى الناحية التالية: إن نساء هذه القبائل ما كن مضطربات، أثناء تلقيهن لعملهن الثنوي في حراسة القطعان، إلى تلبية مطالب واحتاجات واحدة، أي لتكوين عادات نظامية في العمل، كما كانت الحال بالنسبة إلى نساء قبائل الزراع. فالنساء في قبائل الرعاعة ما كن يعانين نقصا في المؤن عندما يبقن بمفردهن في أماكن السكن. ذلك أن العائلة التي كن يتولين حراستها كانت قابلة للذبح في أي لحظة لم يكن على النساء في تلك القبائل إثنان أن يختارا عن أساليب أخرى لتغذية طعامهن شأن نساء القبائل التي كانت تمارس الصيد والزراعة معا، و كانت حراسة العائلة من جهة أخرى تتطلب قدرًا أقل من النساء من عمل الأرض المعتد.

كانت النساء في قبائل الرعاعة دون الرجال ذكاءً، وقوة، ومرنة، وهذا ما عزز صورة المرأة كمخلوق ذوني. ومع تعاظم ثروة القبيلة الحيوانية، ترتفع شروط المرأة كخادمة - كانت أقل من الحيوانات قيمة - واسعنت البورة الفاضلة بين الجنسين. وتجدر الإشارة إلى أن قبائل البدو والرعاعة قد تزعمت أكثر من قبائل الزراع إلى التحول إلى أقوام تعيش على العرب والسبل والنبيب. فثروة الغالحين كانت تعتمد على عمل أكثر هنوا واتزانوا من عمل الرعاعة والبدو الذي كان النهب بالنسبة إليهم مصدر إثراء واضح. في البدء كانوا لا يسرقون إلا البهائم، غير أنهم أخذوا بالتتربيج ينهبون ويذمرون القبائل المجاورة، يحرقون مؤنها ومخازنها، و يسرقون أبناءها ليجعلوا منهم رقيقا و عبدا.

إن خطف نساء القبائل المجاورة و تزوجهن بالقرية كان من عادات القبائل الرجل و المقاتلة، الواقع أن الزواج القرى قد وصم بقرة تاريخ البشرية، وساهم نون أثني ريب في توطيد اضطهاد المرأة، فالمرأة التي كانت تتنزع من قبالتها رغم إرانتها كانت تتمرد بكل لا حول لها ولا قوة، فهي رهن إرادة الذين خطّوها أو أسروها. ومع ظهور الملكية الخاصة دفع الزواج القرى بالعقلل الشجاع إلى التخلّي عن حصته في الغيمة من بقر أو جيد أو خراف، والإكتفاء بطلب الحصول على حق امتلاك امرأة امتلاكا مطلقا، أي حق التصرف بكامل قوّة عليها. «لست في حاجة إلى أبقار، أو جيد، أو حيوانات طويلة الورق؛ المعني فقط مع امتلاك المرأة التي أمرتها بيدي الآتنيين». و من الواضح أن أسر المرأة و خطفها من قبل قبيلة غريبة كان يعني فقدانها لحقوقها، فقد كانت تجد نفسها في حالة من الخضوع، محربة من حقوقها إزاء العشيرة برمته، و خاصة إزاء أسرها أي زوجها مع ذلك فقد أخطأ الباحثون عندما ربطوا عدم تحرر المرأة بالزواج؛ ظلّت مؤسسة الزواج و إنما اللور الاقتصادي للمرأة الذي يفسر فقدانها للحرية لدى أقوام الرعاعة الرجل، فالزواج القرى الذي عرفه بعض قبائل الزراع لم يدل من حقوق المرأة التي كانت قد رسخت جذورها لدى تلك القبائل. يروي التاريخ لنا كيف أقدم الرومان القدامى على خطف نساء السابينين<sup>4</sup>. وكان الرومان شعبا زراعيا و ظلل الرومان، طول فترة هيمنة هذا النظام الاقتصادي، يكتون الاحترام لنسائهم حتى ولو كانوا انتزعا عنهم بالقرية من القبائل المجاورة، وحتى أيامنا هذه نجد الناس يقولون عن المرأة التي تحظى باحترام و تقدير أسرتها و محبيها أنها «مثل السيدة الرمانية». يد أن وضع المرأة الرومانية قد سجل هو الآخر مع الأيام تراجعا و انكماشا.

إن شعوب الرعاعة لا تكن أي احترام للمرأة فالرجل هو الأمر الناهي؛ و سيطرة الرجل هذه، أي النظام الأبوي، لا تزال قائمة في أيامنا، و حسبنا، فيما تناكم من ذلك، أن نتفق في أوضاع قبائل الرعاعة والبدو في بعض الجمهوريات السوفيتية: لدى البنكري، والقرغيز، والكلموق. فوضع المرأة في هذه القبائل يدعو حقا إلى الأسى. فهي ملك للزوج الذي يعاملها معاملة البهائم تماما. فهو

<sup>4</sup> السابينين: شعب جيلي عاش في منطقة سابينيا و هي إقليم قديم من قلب إيطاليا الوسطى - م -

يشتريها كما يشتري الغنم ثم يجعل منها زاملة، عجلة من غمة عل ثانية سافر رغبته، ولا داعي للإضافة بأن الحب حق غير معروف به للمرأة القلعوية أو القرعية، وقيل أن يعقد صفة الزواج بقلم البدي على وضع قطعة من الحديد المعفى في يد زوجة المستقبل ليتأكد من قدرتها على المقاومة، وإنما وقت المرأة فريسة للعرض عدد إلى طردها، وفي جزر فيجي كان يحق للرجل حتى ماض قريب، أن يقتل زوجته، أما عند القلعوق فيحق للرجل أن يقتل زوجته إذا ما خانته، لكن إن أذنت الزوجة على قتل زوجها، توجب اجتناث أنها وأنثيتها.

ولدى العديد من القبائل الهمجية في مرحلة ما قبل التاريخ كانت ملكية الرجل لزوجته تتضمن من هذه الأخيرة أن تتجه حتى في الموت، فقد كان على الأزواج أن يصعدن إلى المحرقة المعدة للتدمير ليحرقن عليهما هذه العادة الهمجية سالت لفترة طويلة من الزمن لدى هنود أمريكا والهند، وكذلك لدى القبائل الإفريقية والترويجين الذاهبي، والبدو السلفيين في روسيا القديمة، وكذلك بعض الشعوب الأفريقية والإسوبية ثمة أسعار محددة لشراء النساء، إسوة بالخرفان أو الصوف أو الفاكهة، ولا يحتاج المرأة إلى كثير من الخيال لتصور طبيعة حياة هذه الشروط.

إذا كان الرجل غنياً استطاع أن يشتري عدة زوجات، وكانت هذه الاختירות يمنحنه مجاناً قوة عملهن ويرامن له التروع في علاقته الجنسية، في الشرق يحضر الفقير إلى الاكتفاء بأمرأة واحدة، في حين يتقاضى أفراد الطبقة المسيطرة بعده حواريهم، وكذلك قبيلة اسكاتي البدائية يملك واحداً ثالثةً امرأةً، وملوك الهند وأمراؤها يملكون هم أيضاً العادات من النساء، وكذلك الأمر في تركيا وفارس حيث يحكم على النساء الباربات بخصوبة حياتهن سجينات جنارن الحرير وقد ظل هذا الوضع قائماً في الشرق حتى أيامنا هذه، فالنظم الاقتصادي القديم لم يتبدل، وهو يحكم على النساء بحياة أمر وعمردية، لكن ليست مؤسسة الزواج وحدها مسؤولة عن هذا الوضع.

إن شكل الزواج، مهما اختلف أو تباين، يبقى تابعاً للنظام الاقتصادي والاجتماعي ولدور المرأة داخل هذا النظام، وسوف نعود إلى هذا الموضوع بمزيد من التعمق في سلسلة أخرى من المحاضرات، لكن نستطيع أن نوجز المقدمة فقول: إن دور المرأة في النظام الاقتصادي يحل سافر حقوقها الزوجية والسياسية والاجتماعية.

وسوف أضرب لكم هنا راهنا على ذلك، فمن المؤلم حقاً أن نرى المرأة عذلاً بشكير، والقرعية، والترغبة، والتسلط من الحقوق كافية، لكن ما أن يستقر بشكيري أو ترقي في المدينة، وتتجه زوجته في تفاصيل سبل معيشتها، حتى يضعف سلطانه عليها ويقتراح على نحو ملحوظ.

تلخص محاضرة اليوم إن قائلين: إن وضع المرأة، في المراحل الأولى لتطور البشرية، كان يختلف باختلاف أبعاد التطبيق الاقتصادي، فحيث كانت المرأة تؤدي دور المنتجة الأساسية في النظام الاقتصادي، كانت تقر وتحترم وتحتفظ بحقوق مرفقة، لكن حيث كان عملها يرتقي أهمية ثانوية، كانت تحتل وضعاً تابعاً، وتتجزء من الحقوق، وتتحول إلى خاتمة للرجل، أو بالأحرى إلى جارية له.

ويفضل زيادة إنتاجية العمل البشري و تراكم الثروات، إزداد النظام الاقتصادي تعيناً مع الأيام، فكانت نهاية الشيوعية البدائية والحياة في إطار قبائل منطقة على ذاتها، وقد حل مكان الشيوعية البدائية نظام اقتصادي قائم على الملكية الخاصة والعبارات المتتابعة، أي التجارة، وبات المجتمع بذلك منقسم إلى طبقات، وسوف تتحدث في المرة القادمة عن وضع المرأة في ظل هذا النظام الاقتصادي.

## المحاضرة الثانية: دور المرأة في نظام العبودية

أيتها الرفيقات، توقفنا في المرة الأخيرة عند طور نمو المجتمع المتغير بالانتقال إلى نظام اقتصادي قائم على الملكية الخاصة. لقد عاشت الشيوعية البدائية طوال آلاف السنين. أي أنها استمرت لفترة أطول بكثير من المرحلة التي ثنتها والتي شهدت ظهور الملكية الخاصة. وطول آلاف السنين حظيت المرأة بالإحترام والتقدير بفضل الدور الذي أثته في ظل النظام الاقتصادي الأقوى ودبعة كانت تصارع الزراعة.

لقد سادت نظام الأمومة لفترة طويلة، وتبعد الأساطير والحكايات الشعبية القديمة على المكانة المرموقة التي كانت تتمتع بها المرأة، والتقدير الذي كانت تحظى به؛ وتخص بالذكر من بين هذه الحكايات تلك التي تدور حول بطولات الأمازونيات والتي جاءت من اليونان وبالذات الباطلية، من إفريقيا وبورنوميا. وتحدث واحدة من هذه الحكايات عن عشرين ألف فارسًا، ويسير أخرى إلى جيش من الأمازونيات هدد بالسيطرة على الإمبراطورية المصرية العظمى. وقبل ألفي عام شاركت النساء في معركة جرمانية من الناحتين العقابيين مشاركة فعلة في معارك دارت رحاها ضد الغزاة الرومان وأرجعنهم على الفرار. وحتى أيامنا هذه نجد الحرس الأفيري عند قبيلة من قبائل داهوري مؤلفاً من نساء مسلحات، وعد الأكراد، في جبال التقنيس، تشاركن النساء في القتال ويتزوجن من الإعجاب ببطولاتهن.

كل ذلك يثبت بما لا يقبل الجدل أن المرأة، في بعض مراحل التطور الاجتماعي-الاقتصادي، تستطيع أن تكون لا منتجًا فحسب، بل جندية أيضًا. فالمجتمعات التي لا تزال ضعيفة، تحتاج إلى تعبئة سافر طاقتها المعرفية لتأمين الدفاع عن نفسها.

وفي المعاصرة السابقة كما قد لاحظنا أن المرأة في تلك الأيام، وفي قبائل الزراع، كانت تتمتع بقدر أكبر من التقدير وأنها كانت تدين بذلك لصفتها منتجًا رئيسياً. لكن في تلك العصر أيضًا كان وضع النساء في قبائل الرعاعة مختلفاً كل الاختلاف.

لقد اقتضت قرون طويلة قبل أن تصبح عبودية المرأة ظاهرة عامة، وقبل أن يصبح عهد سلاطنة المرأة ملماً للحضارة. إن تفرق الرجل، أي نظام الأبوة والقانون الأبوي، لم يلاد بين عشية وضحاها. فالحكايات الشعبية القديمة شهدت على صراع طويل بين نظمي الأمومة والأبوة، صراع استمر طوال قرون عدة، والغرافت الروسية هي خير تفعيل على ذلك. فالأسطورة اليونانية التي ترى مخافرات نصف الإله هرقل، تصنف لنا رحلته إلى بلد تسيطر عليه قبيلة الأمازونيات المحاربات؛ وقد عزم هرقل على وضع حد لسيطرة النساء وعلى تحرير الرجال. وشدة أسطورة أخرى تروي لنا كيف أن آلهة أثينا جربوا النساء من حقوقهن لأنهن استخدمن حقن في الانتخاب لإعطاء مدينتهن اسم «أثينا» إكراماً للآلهة أثينا، بدلاً من أن يطلقن عليها اسم الإله بوسبيثيون.<sup>3</sup>

إن الأساطير الجرمانية التي وصلتنا، ومنها أسطورة أنشودة التيليلونجن على سبيل المثال، تصنف بكثير من النقاوة المعارك التي خاضها مقاتلون شجعان ضد مقاتلات لا يقان عنهم شجاعة قبل أن يروضوهن ويعقّلوا عليهن. بروتوبيل الجميلة لم تهزم من قبل طلب يدها غونتر إلا بعد أن لجا هذا الأخير إلى الجحيلة. لكنها لم ترفض الاستسلام له في ليلة عرسها فحسب، بل عاورت القاتل وهزمت بطلها وعلقته في السقف بعزفه ثم قصت فرائحتها لتفطف في نوم عشقه. والأغاني الفولكلورية الروسية تحثنا هي الأخرى عن الحرية والمساءة اللتين كانت المرأة تعم بهما، وذلك لا في الحياة الاقتصادية فحسب وإنما في ساحات القاتل أيضًا لذكراً لذكر على سبيل المثال البطل دوبرينيا نيكيش الذي راجه، مكتوف الصدر، «فارسة ثلاثة»، كانت تقتل على الأرجح قبيلة لا تزال تعيش في ظل نظام الأمومة. وابنرى دوبرينيا ليقاتلها، لكنها أمسكته من شعره الأجد، و«دسته» في «كيس» وأفهمته أنها لن توافق على الزواج منه إلا ساعة «وطلاً» لها ذلك.

هذه الأغاني والحكايات هي منجم من ذهب، شهادات لا تحصى على الصراع القديم بين نظامي الأمومة والأبوة. صراع تحمل أيضًا بتحولات طرأت على التصورات الدينية. فناسن الكهوف كان يجل الأرض، الأم الأصلية العظيمة الشأن، ومصدر كل حياة. وقد ظلت هذه العقيدة سائدة إلى أن اكتشف الإنسان، الذي ازداد خبرة، أن خصوبة الأرض خاصة للسماء أيضًا. فالأرض وحدها لا تستطيع أن تعطي المعصول الجيد، بل تحتاج إلى الشمس والمطر اللذين هما هبة السماء. فكان أن الآتشي تظل عقيمة من دون بنر الذكر، كذلك فإن الأرض لن تخصب وتحمل التumar من دون الحرارة والرطوبة. وهذا حلّ مكان عبادة الأرض عبادة السماء، عبادة أو زيريس وأبورون، عبادة الإله الروسي جاريليو.

لقد ظلت المرأة تمارس هيمنتها – نظام الأمومة – ما يقي المجتمع من مصالح مشتركة وما انت المرأة فيه دور المنتج الرئيسي. وقد فرض نظام الأبوة نفسه مع ظهور الملكية الخاصة والمتنازعات المصلحية التي أثارتها بين أفراد القبيلة الواحدة. فالتضامن الغريزي الذي يخلقه العزل، حيث السيادة للأتم، ما عاد يمكن للحزول دون تفرق القبيلة وتشتيتها. وقد اضطرت الحفاظ على وحدة القبيلة بإجاد ضرب جديد من التضامن، القائم على سيطرة الأقوى وسلطاته.

<sup>3</sup> إله البحر عند الإغريق، وكان يقطن في قصر في قاع البحر -

ما النتائج التي ترثت على ظهور الملكية الخاصة بالنسبة إلى وضع المرأة الاجتماعي؟ ثمة من يعتقد أن عودية المرأة وخصوصيتها قد رافقا ظهور الملكية الخاصة، وهذا هو الخطأ بعينه. صحيح أن الملكية الخاصة قد ساهمت في تحرير المرأة من حقوقها، لكن فقط في الأحوال التي تضاعلت فيها أهمية المرأة كعنصر منتج بسبب تقسيم العمل **السلاسل** لتدفقات المرأة الاحترام والتقدير. مذ انتهاء النظام الاقتصادي البدائي تحت ضغط تراكم التزوات والتقييم المتمامي للعمل.

وفي مراحل مبكرة ظهرت، إلى جانب الزراعة، مهن مختلفة ومختصة في مجالات عديدة: الفخاري، الناباغ، الحدايك، الجندي، النساج، الخ. ومع تطور العمل الحرفي وازدهاره، تراجعت أهمية عمل الفلاح الذي لم يعد ينفرد بتأمين سبل البقاء للعشيرة. وكان لا بد أن يتراافق ظهور المهن بظهور التجارة، أي بالبحث عن الربح. فالفاخوري الذي كان يصنع إبريقاً من الفخار كان حرص على الاستقلالية من عمله، أي على تحقيق كسب يستطعه في التبادل التجاري. وكان الفلاح بدوره يسعى وراء الحصول على تنافج الناخبوري بكلفة معنوية.

فقد ولّى عصر الشيوخية البدائية حيث كان المطلوب تلبية حاجات القبيلة فقط. فالجري وراء الربح أصبح فعلاً محرك الاقتصاد. في تلك الحقبةاكتسب عمل الناخبوري، والناباغ والحدايك، قيمة أكبر من عمل الفلاح. فقد تراجعت أهمية هذا الأخير بالطبع. لأن الزراعة فقدت مكانتها الأساسية في الاقتصاد، بل لأنها كانت تتطلب توظيفاً أكبر من اليد العاملة. إذاً ما أن كان العمل الحرفي يبلغ مستوى معيناً من التطور لدّي قبيلة من القبائل حتى كان العمل في الأرض يحال إلى العبيد الذين تم تأثيرهم في الحرب.

ماذا كان وضع المرأة في نظام اقتصادي كهذا؟ هل كانت بقيت تتمتع بمعنوية العاضية في الوقت الذي فقد العمل الزراعي فيمه السبلة وأصبح لا يليق إلا بالعبيد؟ ولكن هذا المثال المتخوذ من التاريخ: إن مصر، البلد الفنى والقرى، حافظت لفترة طويلة من الزمن على مختلفات نظام الأمومة. ففي حين كانت النساء في بلاد عاصرت مصر وانشتهرت بتطورها التقافي الرفيع، كالليونان وروما، يعيش في حالة من التبعية، محرومّات من حقوقهن، كانت النساء في مصر يعرفن حرية نسبية ويتعنتن بالمساواة بالرجل.

كيف تفسر ذلك؟ لقد عرفت الزراعة ازدهاراً فريداً على ضفاف النيل الخصبة. والقبيلة التي استقرت في مصر كانت عازة عن قوم من الفلاحين. وقد بيانا سابقاً كيف أن النساء في قبائل الزراعين البدائية كن يؤذنن دور العناية الرئيسي. وقد حافظن على هذا الدور، مع الصفات والأمراض التي لا زرمتها طيلة قرون، على الرغم من ظهور الملكية الخاصة ونظام الطبقات المطلقة. لكن عندما عرف العمل الحرفي والتجارة تطوراً أكثر أهمية، تفرق الحرفيون والتجار على الفلاحين وأنجذبوا نعم حياة جديداً. لماذا؟ إن مردود مهنتي التجارة والصناعة الحرفية كان أهم من مردود عمل الفلاح. وما أن فرضت الملكية الخاصة نفسها حتى حل الركض وراء الربح مكان العمل لصالح المجموع وكأن من المنطقى، نتيجة هذا التطور الجديد. أن تفقد المرأة مكانتها المعينة مع فداحتها دورها كعنصر أساسي في النظام الاقتصادي. وبحدهن النساء المتبنيات إلى قبائل أو طبقات اجتماعية استطعن الحفاظ على قدر من حقوقهن. إنما النساء بقبيلة النساء الاجتماعية (باستثناء الإمام طبعاً) فقد خسرن حقوقهن وتلقن الانبطالاً أسوة بنساء الأقطار الأخرى.

لقد تعددنا الإطالة في الحديث عن مصر وتقاليدها لتبين مدى ارتباط حقوق المرأة بدورها الاقتصادي. وستطيع أن تستنتج كذلك أن المرأة احتفظت بحقوقها لفترة أطول بكثير لدّي الشعوب التي عرفتها في العاضية منتجة رئيسية. وقد استمر هذا الأمر الواقع حتى بعد أن حل مكان الشيوخية البدائية نظام اجتماعي اقتصادي قائم على الملكية الخاصة.

إن الملكية الخاصة ما كانت لتؤدي إلى استبعاد المرأة لو لم تكون هذه الأخيرة قد فقدت أساساً مكانتها كمسؤولة أساسية عن تأمين حاجات القبيلة، لكن الملكية الخاصة وتقسيم المجتمع إلى طبقات عبّا وروجها التطور الاقتصادي على نحو أخفى دور المرأة في الإنتاج.

إن انبطال المرأة يرتبط بتقسيم العمل القائم على تعايز الجنسين، وهو التقسيم الذي أتاح للرجل أن يحتكر كامل العمل المنتج وترك للمرأة المهام الثانوية.

ومع اكتمال تقسيم العمل هذا وتطوره، تعزز خصوصية المرأة وتبعيتها، إلى أن آلت إلى حالة عودية. عيّل ظهور الملكية الخاصة إن سيرورة إبعاد المرأة عن العمل المنتج. يد أن هذه السيرورة كانت قد بدأت منذ عصر الشيوخية البدائية (عند قبائل هرمي العائشة على سبيل المثال). لكن إن كانت الملكية الخاصة غير مسؤولة عن حالة اللامساواة بين الجنسين، فقد ساهمت بالمقابل في تدعيم هذه اللامساواة عن طريق تشديد انبطال المرأة وإخضاعها.

من النتائج اليمامة التي ترتبت على ظهور الملكية الخاصة انحسار الاقتضاء المنزلي عن اقتصاد القبيلة الذي طلبها تعزز بجماعته وتجاهله. وقد أدّى قيام تلك التغييرات الاقتصادية المستقلة إلى إيجاد نعط جديد من الأسرة، الأسرة المطلقة والمطلوبة على ذاتها. وقد تعزز تقسيم العمل داخل الاقتصاد العائشي، القردي والمعزول هذا. فقد احتكر أفراد الأسرة من الذكور شئ الأعمال الانتاجية الخارجية، بينما حكم على المرأة بأن تصبح أميرة مطبخها.

إن الملكية العائلية الخاصة، التي أفسحت في المجال أمام قيام الاقتصاد المنزلي، قد ساهمت إن في استبعاد المرأة عندما خصتها بالعمل داخل البيت، أي بعمل محدود وغير منتج. وهكذا فقد عمل المرأة من أهميتها، من منظور اقتصادي، وباتت المرأة تعتبر مخلوقاً غير ذي قيمة بالمقارنة مع مثل التميم الجيدية، أي بالمقارنة مع الرجل.

الرفن والرحي، اللذين اكتفت بهما المرأة في الماضي، أصبحا وقاً على الرجل، والحقول بدورها لم تعد ملكها. حياة الحرية والانطلاق التي عرفتها في الماضي أصبحت مجرد ذكري. فعمر المرأة، لقرون وقرون، بات الانزواء بين جدران البيت الأربع، والانفصال عن عالم العمل المنتج. ولم تعد المرأة، في سهرها على النار، تؤدي لدور أم الجميع المتفانية في خدمة العشير، وإنما فقط دور

الزوجة وخالمة الزوج. لقد كان عليها أن تغزل، وتنسج، وتصنع الثياب، وتعد الطعام للأسرة. ومع أن صناعة الكتان والقنب قد بقيت في الأرياف حتى أيامنا هذه نشاطاً نسرياً، فإن المرأة لم تعد تحفل في تنظيم الاقتصاد الفلاحي سوى مكانة ثانوية.

\* \* \*

أمل ألا يكون قد غاب عن ذاكرتكِ مجمل ما جاء في المحاضرة السابقة. وفيما سُوف تنتقل إلى تحليل وضع المرأة في طور لاحق من التطور الاقتصادي، أي سوف تعود إلى ما قبل الفين وخمسين عاماً، إلى العهود القديمة ما قبل المسيحية. وإن يدور حديثاً بعد الآن من أقوام همجية وغير متحضر، وإنما عن دول وفيقة التطور، وصاحبة جيوش عظمى. دول عرفت الملكية الخاصة، والتقوّل الظبيقي، وتتميزت بازدهار التجارة والعمل الحرفي. دول قام نظامها الاقتصادي على العمل الركيبي، وسجلت ظهور أول تراكم للرأسمال في أكثر إشكاله بدائية.

ماذا كان دور المرأة في هذه المرحلة من التطور؟ ما الحقوق التي كانت تتمتع بها في جمهوريتي اليونان وروما الوشيتين وفي مدينة قرطاجنة الحرة؟

إن الحديث عن دور المرأة في الإنتاج ياتي يفترض تحديداً مسبقاً لانتصارها الظبيقي. فعندما بلغ النظام الاجتماعي لذلك العصر ذروته على الصعيد الاقتصادي، انتصروا إلى طبقتين متغريتين تماماً: طبقة المواطنين الأحرار وطبقة العبيد. وما كان يُعرف إلا بعمل المواطنين الأحرار وإن أقيمت على عائق العبد مسؤولية صنع الخيز وسائر المنتجات الضرورية الأخرى. وكان الاعتبار الذي يتعتمد به المواطنون مرتبطاً بالخدمات التي يتقدمها للدولة المنظمة. وكان رجال الدولة القادرين على ضبط المواطنين وفرض احترام النظام والقانون في الحياة الاجتماعية، ويتعتمدون بالقدر الأعظم من التقدير والاحترام. وكان المحاربون يأتون بعدهم مباشرةً. حقوق الحرفيين والتجار كانت بالمقابل مطروفةً. أما الرقيق، صانعوا الإزدهار للجميع، فلم تكون لهم آلية حقوق. كيف يمكن ذلك؟ ولماذا حكم على أكثر الأعضاء ثلاثة المجتمع بأن يكونوا موضع الاحتقار والإذلاء، في حين إنهم كانوا يسيطرون مكانة الصدار في مرحلة الشيوعية البدائية؟

إن هذا حرم الملكية الخاصة والتجارة هو المسؤول الأساسي في الواقع عن هذا الوضع. فما أن كان ملك الأرض ينبع في تنظيم رقيقه، وفي فرض احتضان صارم عليه، وفي إرغامه على صنع المنتجات الضرورية للناس، حتى كان يحظى للحال بتغير معاصريه وأحترامهم. وفي دول متطرفة تقليباً وحضارياً كاليونان وروما، كانت المرأة مجردة من الحقوق تماماً، تكتل شاهير الرفق شرطه البشري. لكن حتى في اليونان، لم يكن ذلك هو وضع المرأة على الدوام. فقد كان مختلفاً كل الاختلاف عندما كان الناس يعيشون مجتمعين في قبائل صغيرة ولا يعرفون لا الملكية الخاصة ولا سلطة الدولة. فاليونانيون كانوا في البداية قوماً من المزارعين والرعاة. يد أهلهم اضطروا، لأسباب مناخية وجغرافية، إلى التطور نحو سلطنة اقتصادي أكثر تقدماً. وصارت النساء لا يعلمن في الأرض فحسب، بل جُذُّن أيضاً للحراسة ورعاية القطعان الضخمة، كما اهتممن بالغزل والنسيج.

وفي عصر هوميروس – الذي تصنف لنا حكلياته الشعرية حياة الإغريق القديمي – شاركت المرأة في الإنتاج على نحو فعلٍ صحيح إنها كانت تتمتع بجريتها نفسها. ويصعب في الواقع الجزم فيما إذا كانت تتمتع بجريتها نفسها. ويصعب في الواقع الجزم فيما إذا كانت اليونان قد عرفت نظام الأمومة. ما يمكن قوله بهذا الصدد هو أن نظام الأمومة لم يُعرف على الإطلاق لدى الإغريق، الذين انتقلوا مثداً إلى نسط الاقتصادي وسيط ذلك الانتشار الراسخ الذي عرفه لدى المصريين وغيرهم من الشعوب الغازية. يد أن المرأة قد لعبت مع ذلك دوراً هاماً عند اليونانيين القديمي حسب شهادة دياناتهم. فقد عبد الإغريق ديوميترا، إلهة الخصب. وأجلوا في الإلهية أثينا الحكمة الضاوية. أقليست أثينا – التي ترمز هنا إلى النساء اليونانيات الأوائل. هي التي علّمت الرجال فن الغزل والنسيج وزراعة الزرعون وعمرتهم إلى الأوزان والعقليّن؟ ثمة ديانات أخرى تعكس وضع المرأة في الأنظمة الاقتصادية القديمة. فقد كان التراثيون هنالك يعبدون الإلهية أيون بصفتها زارعة شجرة النفاخ والساهرة عليها.

ولم يكن رجل هو الذي يرعى للدالة عند اليونانيين بل امرأة، الإلهة تيميس، حاملة كفني العيزان. وهذا ما يدل على أن المرأة اليونانية، في المرحلة ما قبل الكلاسيكية، كانت قد احتلت مكانة متقدمة، وعلى أنها كانت هي التي تتضمن في التزارات الناثبة داخل الأسرة.

وقد عزى اكتشاف النار إلى الإلهة هستيا (فيستا). وكان يعهد إلى عذاري صبياناً بعمرمة السهر على النار المقدسة. وتقدم لنا الميثولوجيا اليونانية كذلك مجموعة من الأمثلة على الصراع بين الحق الأموري والحق الأنبوبي. وهذا ما قد يؤكد أن اليونان عرفت في الماضي عصرًا أشرف في المرأة، بصفتها أمًا، على توجيه النظام الاقتصادي للقبيلة.

وكانت المرأة في عصر هوميروس تحضر الحالات والمذنب وتتحظى بالحب والاحترام كزوجة. وكان الرجال يخصونها بمعراجاتهم واهتماماتهم. لكن لم يكن النظام الملاكم نظام أموري على الإطلاق. فهو ميروس يروي لنا كيف أن بيلوبه، الزوجة التعمونية في وفليها، انتظرت بحسب فائق عودة زوجها الغائب. وخلال إحدى الحالات رفضت بيلوبه الملاحم لحملتها بالجلوس مع المدعون، وأفهمتها أنه من الأفضل لها أن تعود إلى جناحها الخاص وتهتم بالأعمال المنزلية.

والواقع أنه في عصر هوميروس بالذات تكون الزوج والملكية الخاصة والاقتصاد العائلي الفردوي. ولا عجب وبالتالي أن كان اليونانيون قد أخذوا، في تلك الحقبة الاقتصادية بلاذات، يتصنون النساء بالتطلي بـ«الفضائل العائلية» وبالتسامح إزاء مغادرات الزوج

الملحن... من لقد كانت هي كوبا، زوجة الملك بريام<sup>6</sup>، تشكى بعرارة من عبوديتها وتقول إنها تشعر بنفسها مربوطة على باب زوجها كما «يربط الطلب إلى حجرته».

ينبغى الآن أن نبحث في وضع المرأة في عصر قيام الدولة اليونانية على أساس الملكية الخاصة وعمل الرقيق. فيما كانت الحضارة اليونانية تفتح، والمعلم الرائعة تثبت، ومقاتل أبولون وفينوس تتحت، والمدن اليونانية تحول إلى عواصم متروبولية للتجارة الدولية وتشهد ازدهار العمل الحرفي وإنشاء مدارس فلسفية ذاتية الصيغة كانت بمثابة مهد للعلم الحديث، كانت المرأة تجد نفسها مضطورة إلى التخلص عن كامل حقوقها وأميالاتها السابقة، محولة إلى عبدة في خدمة زوجها، سيدها وولي أمرها.

إن المسلاة بين الجنسين لم تعد يوملاً قائمة إلا لدى طبقة العبيد. لكن أي نوع من المساواة؟ لقد كان العبيد من ذكور وإناث متساوين في افتقادهم الكلي للحقوق، في اضطهادهم المشترك، في حرمانهم من الحرية، في تلقيهم الأعمال العرفة نفسها، في معاناتهم الجوع وشئي أنواع العذاب. وكانت شروط حياة العبيد قبلة للتفسير بوضعهم الاجتماعي والقانوني الذي ما كان يقر لهم بأي حق. لكن ما لا يمكن تفسيره هو أن تكون النساء اليونانيات، المواطنات العرaves في الجمهورية رفيعة التطور تقلياً، محرومات بدورهن في الحقوق ومعرضات للإختطاف.

بالمقارنة مع العبيد كانت نساء آيتنا وسيارطة ينعن، بالطبع، يفتر من الحقوق، بل الامتيازات، غير أنهن كن مدینات بها لعكلة أزواجهن، وليس لجذارهن. فمن بحد ذاتهن، وككلائن بشريه وكعمايلات، ما كن يكتنون بذلة قيمة، وقد اعتبرن في نهاية المطاف مستعمرات لأزواجهن. كانت حياتهن يكتملها موضوعة تحت الوصاية، وصاية الأب ثم وصاية الزوج. وما كن يحق لهن حضور الاحتفالات التي كانت تغير الحياة العامة في اليونان. إن مواطنات اليونان الحرة وقرطاجة وروما ما كن يعرفن في الواقع سوى عالم يبتعدن الحقيقة. كن يعيشن كامل وقفن في الغزل، والطبيع، ومرافقة عمل الخدم والعبيد والطيريات من بين النساء كمن مخفيات من هذه المهمات، لكن حياتهن كانت تقضى مع ذلك داخل الأجنحة والخدر المخصوصة لهن. كان محکومها عليهن بأن يعشن في معزل عن كل حياة أو نشاط في أجواء بيوتين الخالقة، أسرة بناء الأرستقراطية الروسية وشبلتها بعد قرون عديدة الكاتب الهجائي أرسطوفانس يصف لنا بأسلوبه الساخر حياة السيدة الفريدة فيقول: «إنها ترتدي ثياباً بلون الزغران، وتذهب وجهها بالخضاب» وتنتعل حذاء على الموضة، وتعيش من وراء عمل زوجها وعيدها مطلقة على الحياة». لا عجب بالتأني إن كانت مهنة المرأة قد اقتصرت، في نظر الرجل، على الإنجاب. وكانت المرأة تتنا وتربي بذلة «البيت» وحده. وكان عليها أن تكون «فاضلة»، أي لا مالية وغيرية. وأفضل النساء هن من لا يمكن إلقاء أي رأي بصعلوتهن، لا سلبا ولا إيجاباً. وكان الرجل يستطيع، من جهة أولى، أن يبيع زوجته الزانية في سوق النخالة، وأن يحصل من جهة أخرى على عشيقة عندما يسلم من زوجته الفاضلة. وإلى جانب الزواج الأخلاقي المشرع، كان نظام تعدد الزوجات شائعاً وساري المفعول بشكل عام في اليونان. «زوجة رسمية للإنجاب وإدارة البيت، وأمة لإشباع رغبات الجسد، ومحظية لتلبية حاجات الحياة الفكرية والعاطفية».

إن زوجة المواطن الحر، في الجمهوريتين اليونانية والرومانية المعترتين بتناقضهما وتراثهما، كانت خاصة ومحرمة من الحقوق اسيرة بالخدم والعبيد الذين كانت تأمرهم وتحكمهم باسم زوجها. والحق أن نساء قبيلة بالرتنا، اللواتي كن يعنن في كوخ من القصب، كن أكثر حرية وسلوباماً من الرجال من شقيقاتهن في العصر اليوناني أو الروماني اللواتي كن يقطنن في قصور من الرخام.

كيف أمكن ذلك؟ كيف يمكننا أن نفسر حرمان النساء من الحقوق في مجتمعات كانت تتمتع بتطور اقتصادي وثقافي هائل؟ ليس من المفروض أن يكون من الصعب الإجلاء على هذا السؤال أيتها الريفات. واتي لأرى على وجوههن أنكن قد عرفن الجواب. نساء قبيلة بالرتنا الإفريقية كن يذلن عملاً متبعاً مستفيداً منه القبيلة برمتها، في حين أن اليونانيات ما كن يكتنون إلا بالأعمال العنيفة داخل إطار الأسرة المحظوظ؛ هذا في الحالات التي كن يقعن فيها بفعل ما في مرحلة مبكرة جداً من التطور الاجتماعي، مثلت المرأة اليونانية هي الأخرى قوة إنتاجية هامة بالنسبة إلى مجتمعها. لكن مع ظهور الملكية الخاصة، واعتماد الإنتاج على الرفق، تحولت بالتاريخ إلى أدلة للإنجاب. تذكرون إنن أيتها الريفات أنه في مجتمع نير كاليونان وروما، التي كانت مستعمرات لها لا تعنى، وفي مدينة قرطاج العرة، ما كانت نساء الطبقات المهيمنة بالذات يكتنون بأي حق أو امتياز. لكن ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن نظام الأمومة لم يعرف إلا بتطورها محدوداً في اليونان، وإن نظام الأبوة قد فرض نفسه في وقت مبكر، مما أدى إلى سقوط المرأة السريع في حالة من التبعية التامة في الجمهورية الرومانية بالمقابل ظلت بعض أثار نظام الأمومة قائمة حتى عندما أصبحت روما أعظم بلاً في العالم. وهكذا ظلت السيدة الرومانية تفتخر بالاحترام الجميع وتنتقد هم حتى بعد أن أصبحت الملكية الخاصة محببة بالقانون، وبعد أن بات العمل المنتج بزنداني من قبل العبيد. ففي الشارع كان المواطنون الآخرين يتحدون ليفسروا لها الطريق. وفي البيت كانت سلطتها على الطاغية، كما أنها كانت تتولى تربية الأطفال.

ما سبب هذا الاختلاف؟ لقد أنسست المملكة الرومانية في الواقع من قبل زراع. لذلك ترسخ نظام الأمومة في ماضي مجتمعها، وظل يمارس تأثيره عليه في مراحل تطوره اللاحقة. إلى جانب النساء الخاضعات، الزوجات الفضلات، كانت في اليونان مجبرة قائمة بذاتها من النساء المستقلات: المحظيات. وكانت المحظيات مواطنات حرائر أو إماء منعتن ينتهيكن بشجاعة قوانين الزواج الأخلاقية. كن عشيقات مشاهير الرجال في اليونان.

<sup>6</sup> بريام: في البيولوجيا الإغريقية، آخر مارك طروادة - جـ.

وقد نخل بعضهن التاريخ، شأن ابازيا صديقة رجل الدولة بريكلس، ولائين وفريته ولاما، كانت هؤلاء النساء على قدر كبير من الثقافة ولكن يولين العلم والفلسفة اهتماماً بالغًا، ولكن كذلك يهتمون بأمور السياسة ويتنطلقن في شؤون الدولة، وكانت الزوجات العصرات والفضائلات يتحاشين، بينما كان الرجال يقتربون صحبتين، وما كان يندر أن يتذكر الفلاسفة والكتاب بالإراء والأفكار الجديدة لم يؤلأء المحظيات المثقفات، وقد حدثنا معاصر وسفراء عن الصداقات التي ربطت بين الفيلسوف الشهير وبين ابازيا وعن الخطابات السياسية الرائحة لهذه الأخيرة، وقد ألمحت فريته النحات الشهير براكسيتيلس، ولعبت لاما، التي عاشت في القرن السادس قبل العيالد، دوراً حاسماً في مؤامرة حيكت ضد طاغيتين كانوا قد احتكرا السلطة في الجمهورية، وقد زاج بها في السجن مع رفاقها الذين ناضلوا من أجل الحرية، وذاقت مراارة التعذيب، وهي لا تنسى بضرار المؤامرة تحت وطأة التعذيب، قطعت لسانها بمسانتها وبصقها في وجه القاضي.

وم وجود المحظيات هودليل على سعي المرأة آنذاك وراء التحرر من السجن الخافق الذي كان من قسمها، والذي تمثل في تبعيتها وخضوعها، لكن المحظيات كن يفتقرن إلى شرط أساسى للنجاح، فمن ما كن يؤمنن أي عمل متوج، لذا كن بالسبة إلى الاقتصاد الوطنى، عذبات الفانلة شأن زوجات اليونانيين والرومان الأبيات والمعطوبات تعلموا الحريات والاعتبارات التي حصلن عليها قائمت على أساس من الرمال؛ قلبهن على خضوعهن للرجل من الزاوية العالية، من قبل كما من بعده.

ثمة نساء يونانيات ساهمن، على نحو فردي، في إخاء العلم، والفن، والفلسفة، الشاعرة اليونانية سافو<sup>7</sup> على سبيل المثال أمست مدرسة لصديقاتها، أمّا أغوريديكا، أول طيبة عرفتها اليونان، فكانت تذكر في زي الرجل لمتابعة دروسها، وقد اهتمت فيما بعد بمعالجة الفرضي، وفي الإسكندرية كانت تعيش امرأة فلسوفة وأستاذة، وعلى قدر واسع من الثقافة والجمال وقد الفت من حولها مجموعة من الباحثين والفنانين الآخرين إليها من شتى أنحاء العالم، لكن نهاية هذه المرأة كانت منجعة، فقد مزقت إريا إريا من قبل جمهور أعنى وأهوج ألبه عليها كيـنة غيرoron. وقد حصل ذلك في أيام المسيحية الأولى، هذه الوجهة النسوية الجميلة والتقوية تعطي أفضل شهادة عما تستطيع المرأة تحقيقه عندما لا يبتلا عقلها وقلها وروحها من جراء حياة مشوقة من الهوان والعلولة داخل حطران بيتهما الأربع، لكن هؤلاء النساء الشجاعات، والقيادات العدد، لم يستطعن مع الأسف التأثير على الأجراء العادة السائدة في ذلك العصر والمتميزة بتأخلف النساء ويطالبن. كن يشكلن حالات استثنائية، ولهذا السبب كن يعجزن عن إدخال أي تغير على شروط الحياة النسوية ولا ريب في أن العديد من النساء كن يتألفن لشروطهن البشـن ولقدانهن الحقوق، لكن معظمهن ثابـر على ثقـة دور عـدة الـبيـت، وأـفة الـزـوج والـأـسـرـة، وكانت النساء يشعـن غـرـيزـياً بـأنـ الـاقـسـادـ الـعـزـلـيـ،ـ الـمـلـكـيـةـ الـخـاصـةـ،ـ الـزـوـاجـ الـشـرـعـيـ،ـ هـيـ الـوـاجـزـ الـأسـاسـيـ الـمـتـحـصـبـ أـمـمـ تـحـرـرـهـنـ،ـ وـفـيـ مـلـهـةـ الـكـتـبـ الـيـونـانـيـ الشـهـيرـ أـرـيـسـطـوـفـيـنـ بـرـلـمـانـ النـسـاءـ،ـ يـسـخـرـ مـنـ النـسـاءـ وـيـبـرـأـ بـيـنـ لـاثـنـ بـرـدنـ إـقـمـةـ نـظـامـ جـيدـ وـتـولـيـ الإـشـرـاتـ عـلـىـ شـرـؤـنـ الـوـلـةـ،ـ وـتـجـرـ الإـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ بـطـلـةـ هـذـهـ الـعـلـمـاهـ،ـ بـرـاكـسـاغـورـاـ،ـ تـطـلـبـ بـالـمـلـكـيـةـ الـمـشـرـكـةـ،ـ وهـيـ تـقولـ بـهـذاـ الصـلـدـ:ـ «ـإـنـ أـطـلـبـ بـأـنـ يـصـبـحـ كـلـ شـيـءـ مـشـرـكـاـ،ـ بـأـنـ يـصـبـرـ كـلـ مـلـكـاـ لـلـكـلـ،ـ فـلـاـ يـقـيـ هـنـاكـ لـأـ فـرـاءـ وـلـأـ غـيـاءـ،ـ لـاـ يـدـ أـنـ تـغـيـرـ الـأـخـوـالـ،ـ وـإـلـاـ لـقـيـ بـعـضـ الـأـشـخـاصـ أـصـحـابـ حـقـولـ شـاسـعـةـ وـاسـعـةـ،ـ بـيـنـماـ قـطـعـةـ الـأـرـضـ مـتـاهـيـةـ الصـغـرـ الـتـيـ يـعـلـكـهاـ بـعـضـهـمـ الـأـخـرـ تـكـلـلـ لـكـنـ لـأـخـوـاءـ فـوـرـهـ،ـ يـجـبـ أـنـ تـصـبـحـ الـمـلـكـةـ مـلـكـاـ لـلـجـمـيعـ،ـ وـيـجـبـ أـنـ يـكـونـ لـأـيـ كـانـ الـعـقـ فيـ اـنـجـابـ الـأـطـلـالـ مـنـ أـيـ شـاءـ،ـ هـكـذاـ كـانـ النـسـاءـ يـتـجـجـنـ عـلـىـ الـمـلـكـيـةـ الـخـاصـةـ،ـ الـزـوـاجـ الـقـسـريـ،ـ وـالـتـبـعـيـةـ،ـ فـيـ الـعـامـ 400ـ قـبـلـ الـعـيـالـدـ،ـ أـيـ قـبـلـ الـقـيـنـ وـتـلـقـيـةـ سـنـةـ تـقـرـيـباـ،ـ وـكـانـ الـحـلـ بـتـقـيمـ اـشـتـرـاكـيـ،ـ كـفـيلـ بـتـحـرـرـ الـمـرـأـةـ مـنـ الـوـصـلـةـ الـمـفـرـوضـةـ عـلـيـهـاـ،ـ مـنـتـشـرـاـ إـلـىـ حـدـ سـعـ لـأـرـيـسـتوـفـيـنـ الشـهـيرـ بـأـنـ يـنـتـقلـ إـلـىـ أـعـمـالـ الـمـسـرـحـ الـوـاسـعـ الـاـنتـشـارـ وـالـتـيـ كـانـتـ فـيـ مـقـاـولـ الـجـمـيعـ،ـ وـلـنـ وـجـدـ النـسـاءـ فـيـ نـظـامـ ذـيـ صـفـةـ اـشـتـرـاكـيـةـ إـمـكـانـيـةـ التـحـرـرـ مـنـ وـضـعـهنـ،ـ فـرـيقـاـ لـأـنـ اللـغـةـ الـشـعـبـيـةـ كـانـتـ تـذـكـرـ هـنـ بمـاضـيـهـنـ السـعـيدـ فـيـ عـصـرـ الشـيـوعـيـةـ الـبـداـئـيـةـ،ـ وـمـهـماـ يـكـنـ مـنـ أـمـرـ فـيـ الـيـونـانـيـاتـ كـنـ عـلـىـ صـوابـ عـلـمـاـ أـنـرـكـنـ اـسـتـحـالـةـ إـنـخـالـ أـيـ تـغـيـرـ عـلـىـ نـورـ الـمـرـأـةـ مـاـ لـمـ يـحـصـلـ انـقلـابـ جـزـيـرـيـ فـيـ الـمـجـمـعـ الـيـونـانـيـ بـرـمـتهـ،ـ ذـكـ المـجـمـعـ القـلـمـ عـلـىـ الـانـقـسـامـ الـطـبـقـيـ وـالـحـلـ الـرـكـيـ،ـ إـنـ مـحاـولاتـ النـسـاءـ الـمـتـفـرـدةـ الـرـامـيـةـ إـلـىـ اـنـقـزـاعـ جـمـاهـيرـ النـسـاءـ الـوـاسـعـ مـنـ عـوـدـيـهـنـ الـجـسـديـةـ وـالـعـقـلـيـةـ كـانـ مـحـكـومـاـ عـلـيـهـاـ بـالـفـشـلـ إـلـىـ،ـ وـقـدـ اـنـقـضـيـ أـكـثـرـ مـنـ عـشـرـيـتـ قـرـنـاـ قـبـلـ أـنـ يـصـبـحـ حـلـ بـرـاكـسـاغـورـاـ وـاقـعـاـ فـرـوسـيـاـ الـيـوـمـ هـيـ الـلـلـيلـ الـحـيـ عـلـىـ سـعـةـ أـرـاءـ بـرـاكـسـاغـورـاـ،ـ الـتـيـ اـنـتـرـتـ بـأـنـ تـعـرـرـ الـمـرـأـةـ غـيرـ مـعـكـنـ إـلـىـ ظـلـ الـاـنـتـرـاكـيـةـ،ـ

<sup>7</sup> - شاعرة يونانية شهيرة عاشت في مطلع القرن السادس قبل العيالد، وقد وضعت قصيدة دواوين لم يبق منها إلا بحث معدرات الريم -

## المحاضرة الثالثة: وضع المرأة في اقتصاد الاكتفاء الذاتي الطبيعي

كما أيتها الرفيقات قد اتهينا معاصرتنا الأخيرة بعرض لوضع المرأة في الأزمنة القديمة، في عصر او واجت في العلامة الخاصة والتجارة والعمل الحرفي، واتسم فيه العمل بغياب الحرية وبالعنوبية. إلى جانب عمل الرقيق كان هناك طبعاً محاولات أولية لعمل حرفي حر. لكن العمل المنتج الذي كان يؤديه الرقيق كان أساس النظم الاقتصادي.

لقد حكم على المرأة بأن تعيش بين جدران بيتها الأربع، وهذا ما فقدتها بالتاريخ كل دلالة بالنسبة إلى النظام الاقتصادي. لم تعد تتشكل «وحدة عمل» تساهم، بطريقة أو بأخرى، في إزدهار الدولة والمجتمع. وكان كل دورها إن تكون منجة لأولاد زوجها، وأمام أن تكون أداة للنفعة الجنسية، أفلة كانت أم محظية. وبالختام، حولت الشروط الاقتصادية النساء إلى منقطلات على المجتمع.

كانت حياة النساء - الإماء تتضمن على هامش المجتمع القائم، كمن يرزح تحت نير عمل هرثه، ويشارك رفاقهن في الشقاء، الرجال - الرفق، مصرير لهم لكن على الرغم من قلقى العبد والإماء في تحمل الأعباء، لم يحظ ععلمهم ولو مرة باعتراف بأهليته وبدوره، علماً بأنه كان مصرير إزدهار.

والواقع، لم يكن العمل وإنما التخل والربيع هما اللذان يحظيان بالتقدير. ففي مجتمعات ما قبل المسيحية القديمة هذه ظهرت بالتاريخ أول بروليتاريا عرقها التاريخ، وكانت الصراخ من الطبقات، وقد تضاعفت هذه الصراعات الطبقية مع عطالة أنظمة الإنتاج القائمة على عمل الرفق القربي، على توقيع ركائز دول العصر القديم. وهكذا راحت دوله بعد دوله تمر بمرحلة الانحطاط فالنهاية فالزوال. لقد سقطت دول العصر القديم أمام مد شعوب جديدة تعتمد على أشكال أخرى من التنظيم الاقتصادي، ولسوف نقل بدورنا الحديث عن الحضارات القديمة لتنقل إلى عصر أقرب إلى، إلى القرون الوسطى.

في سائر أرجاء أوروبا آنذاك - أي قبل ثمانين أو تسعين عام - سلا الاقتصاد الطبيعي الذي ما كان يقام على عمل الرقيق، كما كانت الحال في العصور القديمة، وإنما على عمل الفلاحين الأفغان. فاللذان ما عالوا يتكلون عن كامل ريع ععلمهم للإقطاعي الكبير. بل كان جزء من الإنتاج يسرى لتحسين شروط حياة الأفغان. صحيح أن القرن كان ملزاً بما يقتضي الضرائب للسيد، على شكل أموات عبينة أو أنواع أخرى شتى من السخرات. يد أنه كان يحتفظ مع ذلك بجزء من منتجاته يتصرف به كما يحلو له. كان يستطيع مثلاً أن يبالله بمتطلبات أخرى: ومن هذه المبالغات التي كانت تحصل في أماكن مختلفة ولدت وقد تطورت هذه الأخيرة على نحو منتظم وأعطت النور للمدن، أمثلة الميدلات والتجارة. فإن قامت هذه العدن ضمن أراضي الإقطاعي، اعتبرها ملكاً له وفرض عليها الضرائب. لكن كان ثمة مدن حرة، غير خاضعة لسيطرة البويار<sup>8</sup> أو الفرسان. ودبّيتا توغرورون وسيكوف الحريران مثل على ذلك.

كان الناس ينقسمون إلى ثلاثة طبقات طبقة مالكي الأرض، وطبقة الفلاحين، وطبقة البوروجوازيين. وعندها بلغت القرون الوسطى ذروتها - بين 900 و 1300 - كان وضع المرأة يختلف باختلاف انتتماعها الطبقي. لكن داخل كل طبقة اجتماعية كان عامل واحد يحدّد مكانها، وكان هذا العامل هو دورها في الإنتاج على وجه التحديد.

ستبدأ بتحليل شروط حياة طبقة كبار التجار والملاحة، فعندما بلغت الإقطاعية أوجها وتمركت السلطة بين أيدي كبار مالكي الأرض والتجار، كان النظام الاقتصادي يقوم على الاقتصاد الطبيعي. وهذا يعني أن سائر السلع الاستهلاكية التي كان يحتاجها مالك الأرض - النبيل الإقطاعي صاحب الأرضي الشائعة وفلاحه الأفغان كانت تصنف من قبل الأفغان أنفسهم وداخل حدود الإقطاعية. ولم تكن التجارة التجارية دارجة (خارج تلك الحدود). وتحتاج حكايات تلك العصر عن تعطّل الحياة والاقتصاد المنزلي اللذين سداً يومياً.

كان قصر الملك الإقطاعي يمثل المركز الاقتصادي. وكان الخدم من الأفغان. وكل ما كان يحتاج إليه القصر - كان هذا الأخير يضم عدداً كبيراً من السكان، بدءاً بعطلة السيد الإقطاعي القرية والبعيدة، وانتهاء بالضيوف والخدم والحرس والجند - كان يصنع داخل الإقطاعية.

كان الأفغان ينفعون ضرائبهم بالمواد الخام - جلد حيوانات، صوف، لحم وحربوب - وكانتا يأتون بها إلى القصر، أو في روسيا إلى البيت الملك النبيل. وكان تصنيع هذه المواد الأولية يتم داخل القصر. إن اقتصاد التجار الإقطاعيين المنزلي كان في غاية التعقيد وكان يحتاج إلى منظم كفؤ. ومن كان في القرون الوسطى يشرف على تنظيم الاقتصاد المنزلي الإقطاعي، في فرنسا أو إنكلترا أو ألمانيا؟ هل كان صاحب الأرض، السيد، أو الفارم؟ كان صاحب البيت مشغولاً على الدوام بالحروب أو ب أعمال النهب والسلب. لذلك كان يتطلب لزواجه عن إدارة القصر. فهي التي كانت تسلم اثارات الفلاحين في الوقت المطلوب. وهي التي كانت تشرف على عمل الخياطين، والأسكافين، والحدائين وغيرهم من الحرفيين. وتحت أنظارها كانت تسج الأقمشة الصوفية الناعمة والكتانية الطister، وتتضمن الدانتيلات وخواصات الجند. وكانت زوجة النبيل تشرف كذلك على طحن الطحين وعلى إخراج العون لفصل الشعاء. وكانت أقنية القصر تحتوي على مئات البراميل من النبيذ والجعة، وكانت مخازنها تخزن بشتى أنواع البضائع. فكل ما كان يستهلك في القصر، سواء من قبل السيد

<sup>8</sup> - بويار، نبيل إقطاعي في روسيا.

وضويفه أو من قبل خدمة وجنته، كان يصنع مطياً فلادشي، كان يشتري من خارج القصر. صحيح أن البايعة كانوا يزورون القصر بين الحين والأخر ويستقبلون فيه على سعة ورحب، لكنهم كانوا يعرضون غالباً بضائع أجنبية أو سلعاً كمالية: حراير من الشرق، بلوراً من البنقية، أسلحة أو أحجاراً كريمة من نافل القول أن نساء الطبقة المسيطرة كن موضع احترام وتقدير بصفتهم مشرفات على تنظيم الاقتصاد. وقد أقر العرف الفرنسي والألماني والإنجليزي للمرأة بحق وراثة ألقاب زوجها وأملاكه.

في بداية القرن الحادي عشر، وبعد أن أباحت الحروب الصليبية معظم الورثة من الذكور، تحول هذا الحق الوراثي الإقطاعي إلى قانون من قوانين الدولة في إنكلترا، وببلاد القلاندك، وفي بورغونديا وقلندة. وقد أشاد مؤرخ العوليات في القرون الوسطى بحكمة وإنسانية الإدارة النسوية للعوليات الإقطاعية، فعندهما تزوجت البيورن<sup>9</sup>، دوقة أوكريتن، من ملك فرنسا، ليس شعبها ثواب الحداد. وتروي لنا العوليات كيف كانت البيورن تهتم برعيتها، وكيف حفظت الرسوم الجمركية لتشجيع التجارة، وسنت القوانين التي تحفل للعدن الإدارية الأذكية كي تعنى رعياتها من تعرف الإقطاعيين. كذلك تكشف لنا العوليات عن مدى حب البيورن للآخرين.

وقد أشاد المؤرخون والقصاصرون الشعبيون على نحو معملاً بالملكة الفرنسية أن لو بروتيبيا (زوجة الملك شارل الثامن ومن بعده لويس الثاني عشر). أمّا الأميرة أولغا، أول أميرة روسية اهتمت المسيحيّة، فقد عاشت في ذاكرة الشعب نموذجاً للملكة الحكيمـة. كان القانون الفرنسي القديم يقر بالنقل مسلطة الأب على امرأته إلى الأم في حال غياب الأول أو وفاته، وكانت الأم تغير وصية على أولادها. وكانت نساء الأسر النبيلة تمارس، اسوة بالكونتات والأمراء، وظائف قضائية. وكان لرئيسات الأسرية امتيازات مماثلة، وهكذا كانت النساء يحضرن جلسات محاكم ذلك العصر، بل يتحمنن قبة القاضي أيضاً.

في حال غياب السيد لم تكن زوجته تمارس سلطتها على أفراده فحسب، وإنما أيضاً على مقطعيه، أي على ملوك أراضي التي شملها خاضعـن هيـثـرة للـسـيدـ الإـقطاعـيـ. وكانـ هـنـ وـاجـيـهاـ الحـفـاظـ عـلـىـ شـرـفـ شـعـلـ الأـسـرـةـ. وـفـيـ أـشـاءـ الـأـعـيـالـ وـالـاحـقـالـاتـ كـانـتـ تـمـسـرـ مـكـانـةـ التـرـفـ. وـكـانـتـ الـعـبـارـاتـ بـيـنـ الـفـرـسـانـ تـسـلـيـهـ مـنـ غـرـبـةـ لـدـىـ الطـبـقـةـ الـرـاقـيـةـ. وـكـانـتـ النـسـاءـ مـوـضـعـ إـجـالـلـ الـفـرـسـانـ وـتـكـيـرـهـمـ. أمـاـ الـشـعـرـاءـ الـحـوـالـونـ وـالـفـتـشـونـ فـكـانـواـ يـقـنـونـ بـفـضـلـاهـنـ. كـانـ أـوـلـ وـاجـيـاهـنـ فـارـسـ الـقـارـنـ «ـالـفـاعـ عنـ الـفـرـقـ». وـإـذـاـ مـاـ الـقـيـ فـارـسـ بـأـمـرـةـ تـرـجـلـ عـنـ صـمـهـرـةـ جـوـادـهـ. وـقـدـ كـانـ لـكـلـ فـارـسـ «ـسـيـنـتـهـ». يـعـرـ لهاـ عنـ إـعـجـابـهـ مـنـ بـعـدـ، مـنـ دـوـنـ أـنـ يـكـونـ لـهـ أـيـ أـهـلـ فيـ أـنـ تـتـحـقـ ذاتـ بـوـمـ رـغـبـتـهـ فـيـ الـرـسـالـ. لـكـنـ عـلـمـ الـاحـتـرامـ وـالـتـكـيـرـ هـذـهـ كـانـتـ وـقـاـعـاـ عـلـىـ نـسـاءـ الـطـبـقـاتـ الـنـبـيلـةـ. وـلـمـ يـكـنـ الـفـارـسـ يـرـىـ أـمـ مـنـ وـاجـيـهـ التـبـيرـ عـنـ اـحـتـرامـهـ لـنـسـاءـ الـطـبـقـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـأـخـرىـ.

لـكـنـ لـنـ كـانـ السـيـدـ النـبـيلـةـ تـمـتـعـ بـقـرـبـ منـ الـحـقـوقـ وـالـاـمـيـاـزـ بـصـفـتـهاـ مـعـتـلـةـ طـبـقـتهاـ وـمـنـظـمـةـ لـلـاـقـصـادـ الـمـعـنـدـيـ الـإـقـاطـاعـيـ. فـقدـ كـانـتـ بـلـعـقـبـلـ، كـافـشـ بـشـرـيـ وـكـفـرـ، تـرـىـ حـقـقـهاـ الـأـوـلـيـةـ تـاسـ وـتـهـكـ، فـالـلـوـقـةـ أـوـ زـوـجـةـ الـعـلـمـ غـرـافـ<sup>10</sup>ـ الـتـيـ كـانـ الـأـقـانـ يـرـجـونـ أـهـمـهـاـ وـلـاـ يـتـحـرـرـ الـأـرـسـتـوـقـاطـيـوـنـ الشـيـانـ عـلـىـ الـوـقـوفـ فـيـ وـجـهـهـاـ وـمـعـارـضـهـ مـشـيـثـهـاـ، كـانـتـ تـرـجـعـ هـلـعـاـ أـمـامـ زـوـجـهاـ، مـالـكـهاـ وـسـيـدـهـاـ.

فـيـ ذـاكـ الـعـصـرـ، عـصـرـ سـيـطـرـةـ طـبـقـةـ الـنـبـلـاءـ، كـانـتـ السـيـدـةـ مـنـ حـقـ الـأـقـرـيـ. فـقدـ كـانـ الـفـارـسـ يـدـيـنـ بـسـلـطـةـ لـغـارـاتـ الـمـلـبـ وـالـتـهـبـ، لـأـسـعـلـ الـعـنـ وـالـتـغـرـيبـ الـمـعـجـيـ. وـكـانـ رـبـ الـأـسـرـ يـعـارـسـ سـيـطـرـةـ عـلـىـ أـنـتـاعـهـ كـافـةـ، مـنـ مـقـطـعـنـ وـأـقـانـ، وـيـغـرـبـ سـيـطـرـةـهـ عـلـىـ أـرـاضـيـهـ كـافـلـةـ. وـفـيـماـ يـتـلـقـ بـسـلـطـةـ الـأـبـ وـالـزـوـجـ، فـلـمـ يـسـقـ قـطـ أـنـ اـرـتـتـ فـيـ الـعـصـورـ الـقـدـيمـةـ ذـاكـ الشـكـلـ الـمـقـظـمـ وـالـكـارـيـكـاتـورـيـ الـذـيـ اـرـتـتـهـ فـيـ الـقـرـونـ الـوـسـطـيـ. إـنـ إـرـهـابـ الـذـيـ كـانـ يـعـارـسـ الإـقـاطـاعـيـ كـانـ يـشـلـ سـلـطـنـ رـعـيـاـ. وـكـانـ لـهـ سـلـطـنـ مـطـلـقـ عـلـىـ زـوـجـهـ وـأـرـلـانـدـ. كـانـ يـحقـ لـهـ مـثـلـ أـنـ يـصـرـ مـعـالـةـ زـوـجـهـ، أـنـ يـصـرـ مـنـهـاـ، أـنـ يـطـرـدـهـ، أـنـ يـعـنـجـهـ إـلـىـ صـلـيقـ مـنـ أـسـدـلـهـ إـذـاـ كـاـ طـبـ لـهـ ذـاكـ، وـأـنـ يـضـيـفـ عـلـيـهاـ أـفـضـلـ جـوـادـ فـيـ اـسـطـبـلـهـ وـأـفـضـلـ سـيفـ غـنـمـهـ مـنـ الـمـغـارـبـ. وـكـانـ يـحقـ لـهـ كـذـاكـ، حتـىـ الـقـرـنـ الثـانـيـ عـشـرـ، أـنـ يـرـاهـنـ عـلـيـهاـ فـيـ لـعـبـ تـرـدـ. إـذـاـ مـاـ خـلـتـهـ أـوـ اـرـتـكـتـ أـثـمـاـ، حـقـ لـهـ قـتـلـهـاـ. لـمـ يـكـنـ سـلـطـنـ الـرـجـلـ مـنـ حـنـودـ فـيـ الـوـاقـعـ. وـهـكـذاـ، فـلـنـ الـكـوـنـيـسـةـ الـأـنـيـةـ وـالـأـيـةـ، الـتـيـ تـرـفـعـ عـنـ رـدـ السـلـامـ عـلـىـ فـارـسـ مـنـ سـعـارـ الـنـبـلـاءـ، كـانـتـ تـرـجـعـ ذـلـيـلـةـ أـمـامـ زـوـجـهاـ وـتـقـيلـ بـصـعـتـ لـعـكـهـ وـسـرـ، مـعـاـلـهـ.

فيـ إنـكـلـتراـ كـانـ كـلـ مـلـكـ الـأـرضـيـ يـتـعـتـقـونـ، إـلـىـ جـاتـ الـكـوـنـتـاتـ وـالـأـمـرـاءـ، بـحـقـ اـتـخـابـ أـعـضـاءـ الـبـرـلـمانـ. وـلـمـ تـقـدـ سـاؤـهـ هـذـاـ الـحـقـ إـلـاـ بـلـتـرـيـجـ طـرـداـ معـ تـبـالـ الـبـيـنـةـ الـاجـتمـاعـيـ الـعـلـمـ وـظـهـورـ الـمـجـتمـعـ الـبـرـجـواـزـيـ (حتـىـ فـيـ زـمـنـ مـتـاخـرـ كـالـقـرـنـ الـسـابـعـ عـشـرـ نـرـىـ مـلـكـةـ الـأـرضـ الـإـنـكـلـزـيـةـ أـنـ كـلـيـفـورـدـ تـاـخـلـ بـعـدـ لـاـسـتـرـدـاـ حـقـقـهاـ الـقـدـيمـةـ). وـالـحـالـ إـنـهـ كـانـ يـحقـ فـيـ الـوقـتـ نـسـهـ الـزـوـجـ الـمـخـلـعـ أـنـ يـسـعـ زـوـجـهـ بـالـعـزـادـ. فـكـيـفـ تـفـرـ تـاقـضـيـاتـ وـضـعـ الـمـرـأـةـ الـمـعـنـدـيـةـ إـلـىـ الـطـبـقـاتـ الـمـالـكـةـ؟ بـيـسـاطـةـ عـلـىـ النـوـرـ النـالـيـ: فـالـأـسـرـةـ وـعـشـرـةـ الـأـسـرـةـ كـانـتـاـ

<sup>9</sup> - البيورن داوكريتن (1120-1304): دوقة أوكريتن، تزوجت في عام 1137 من ملك فرنسا لويس السابع الذي طلاقها في عام 1152، فتزوجت من جديد من هنري بالتجاريته الذي أصبح ملكاً على إنكلترا. -

<sup>10</sup> - غارغاف: الحكم العسكري لمنطقة حدودية في إنكلترا. -

في القرون الوسطى تمارس سلطة مطلقة على أفرادها، وداخل الأسرة كانت السلطة، في عصر تعزز بانتصار التصويمية وقطع الطرق وسيلة اللاثرية، لمن يؤمن النفاع عن مصالح الأسرة والعيشة تجاه عشوائية العالم الخارجي.

لقد كان عمل المرأة داخل الاقتصاد الإقطاعي أقل أهمية إذن من مهنة الساتح على الرغم من فلاته الجلي. فما الوسيلة العثلى التي كانت تضمن للأخير أو الكومن زيلة مداخله أو ثروته؟ من الواضح أن ثروة العائلة كانت تنمو عن طريق سلب الميران والفالحين بسرعة أكبر مما عن طريق العمل الاقتصادي اليدوى لذلك ظلت إدارة المرأة للاقتصاد الإقطاعي ثانية الأهمية في نظر طبقة البلاط، ولما كان الإتزاء عن طريق نهب أموال الآخرين مشروعًا آنذاك، فقد كان الناس يفضلون بطبيعة الحال تحقيق الأرباح من دون عمل. وقد قادهم هذا العيل إلى احتقار العمل بسائر أشكاله. وهذه الشروط تفسر الطبع المتافقن لوضع المرأة؛ فقد كانت من جهة، بصفتها زوجة السيد، تحلى الحق في حمل الألقاب، وفي امتلاك الأراضي والقصور، وفي ممارسة سلطتها المطلقة على رعياتها - غالباً ما كانت النساء يحكمن العطلات والإمارات - وفي معاقبة أقاربها بطردهم، وبالإقصاص منهم، وبتعذيبهم بل بقتلهم أيضًا. بدأ أنها، من جهة أخرى، ما كانت تفتخر ببساط الحقوق الإنسانية في علاقاتها برب الأسرة، فيما يتعلق بوضعيهن داخل مؤسسة الزواج، لم تكن زوجات كبار ملوك الأرض في القرون الوسطى أقل معلنة لاختطافها والاستتاب من نساء بسائل هرمي العواشي.

في روسيا لم تكن نساء الطبقة النبلية في وضع يحسن عليه، والواقع أنهن لم يشاركن على نحو فعل في تنظيم الاقتصاد إلا خالل فترة وجزءة الأخيرة من تاريخ روسيا. فرغم ما تخلين عن هذا الدور لصالح أفراد الأسرة من الذكور أو الوكلاء، وهكذا أصبحت المعيبة الوحيدة لزوجة النبيل الروسي تمسن التزية.

لقد فرض الحق الأنبوى نفسه في وقت مبكر في روسيا. وسيطرة التر (قبيلة من الرعاعة البدو عرفت باختطافها المطلق للنساء) جاءت لتدعيم شروطاً كانت قائمة، أي سيطرة الرجل المتمدد على المرأة، لكن على الرغم من ذلك ظلت تكريات نظام أسرة قيم تتناقل عبر الأساطير الشعبية حتى القرن الحدسي عشر. فالمرأة في روسيا القديمة كانت، حسب تلك الأساطير، تفتخر بحق التصرف بالأعمال من دون إذن خاص من زوجها، كما كانت تشارك في العلاوات العرضية وتغادر التحكيم، وحسب القوانين الروسية الأولى - «القانون الروسي» لم يكتب إلا في القرن الثاني عشر - كان نسب الأولاد للأب لا للأب. وهذا دليل ساطع على وجود خطأ من نظام الأمومة، والشريعة البدائية، والاقتضاء الريفي لدى الشعب السلافية القديمة. إن الحق الأنبوى لم يفرض نفسه في روسيا إلا مع الانتقال إلى تنظيم إقتصادي أكثر تعقيداً والأخذ بعيداً تربة الحيوانات التي لا تتطلب إلا عدداً محدوداً من العشيقة وتحطى في الوقت نفسه مردواناً أكبر. وهكذا لم تعد الزراعة تحمل دور ثانوي في اقتصاد روسيا القديمة، لكن ذكرى سيطرة النساء على النظام الاقتصادي ظلت مع ذلك حية لدى الفلاحين في شمال روسيا. وقد استمرت من خلال الأغانى والألحان الشعبية، التي يقى الناس يتشدونها حتى بعد أن أصبحت زوجة العلّاك تشارك زوجة الفلاح مصير الاختطاف والاستتاب.

لقد ساعدت متطلبات العترة في الحقيقة على تعزيز جيل المرأة الأرستقراطية الشابة وختوها وحضرها، فقد كان مصدرها يبطله الآخرون؛ فلدى طبقة البلاط كان الأب هو صاحب القول الفصل في خيار الشريك وإن كان ملزمًا بأن يأخذ بعين الاعتبار آراء الشيوخ والمسنين في الأسرة. وكان زواجهما في الأساس شيئاً من شؤون الأسرة، فقد كان الهدف الأساسي منه تفريح الأهل بضم مهر الكنه للأسرة، ولم تكن الزيجات تحد بأسباب عاطفية، وإنما لاعتبارات مالية بحتة. فقد كان المقتصد منها تارة توسيع الأهل بضم مهر الكنه إليها، وطوراً إرضاء جل مشاكس ومحب للزروب بعرض مهر البنت عليه أو على أحد أولاده. تلك كانت أسباب الزيجات الحقيقة، وغالباً ما كان الخطيبان يتظاران يوم الزفاف للتعرف إلى بعضهما البعض، كانوا يكتin علة من مقاطعهن متلاطفين، ولم يكن من النادر أن يتم خطبة أطفال تراوح أعمارهم بين الخامسة والسابعة، فالزواج بين القصر كان عادة شائعة في القرون الوسطى. ثوق دى بوربون مثل الذي فقد كامل ثروته، عند قرائه على فتاة في الثانية عشرة طفعاً بغيرها، أما المركيز دواز فقد عقد خطوبته على طفلة في الثانية بعد أن تعهد والدها بأن يدفع له سنواريا فقط من مهرها. والكونتيسة اليانثيد دى سافوا، المعروفة بعفتها ويعيرتها، وعند بفتح يد ابنتها بيرتا لوريت عرض الممتلكات قبل أن يكون الخطيبان قد استكملا عاشهما السادس، وكان بعض الأهالى يحتزن عن خطيبة لابن لم يولا بعده... فالفتان كانوا، على صعيد الزواج، يعلنون انعدام حقهم في الخيار، مثلمون مثل القتلى، فالزيجات كانت تقرر من قبل الأسرة لا من قبلهم. هذا الإنتهاء للصالح القردية ظل شائعاً لقرة طولية من الزمن في الأوساط الفلاحية في روسيا. وكان الهدف منه حمايةصالح الاقتصادية للاستثمارية العائلية. فكان الأهل يعتقدون صفات الزواج من ثون استثناء أولادهم، وقد وضعت الثورة على هذه العادات اللاأخلاقية الموروثة عن القرون الوسطى، وذلك بـالغافلـ تمامـاً الحق الأنبوـى القيمـ.

ولا يحتاج المرء إلى كثير من الخيال كي يتصور حياة المرأة المعقود عليها رغم أنها والتي كان زوجها، عالة على ذلك، يملك عليها حق الأمر والنفي، فالزواج بالنسبة إلى طبقة البلاط، كان له آنذاك هدف واحد: تأمين استمرار السلالة «النجيبة». لذلك كانت قدرة المرأة على الإنجاب وعلى تأمين التربية موضع تكريم فائق، وبهذا السبب بالذات كانت حياة المرأة تعرضاً لأنشد العقوبات. في الحالها ابن زنى إلى الأسرة كانت المرأة تلوث الدم النبيل. وفي حالات الزنى لم يكن الرجل مخولاً حق طرد المرأة فحسب، بل كان يحل له أيضاً تعذيبها، بل قتلها. وكان النفاع عن صالح الأسرة يقتضي بفرض إجراءات لمعاقبتها من الزيجات غير المختلفة، فإذا ما جرى إنسان على مزاج دمه غير النبيل بالدم الأزرق لقتلة أرستقراطية، جرت هذه الأخيرة على التور من حقوقها وأدخلت إلى السير أو قلت. ولم يكن عدم المرأة يلحق بها الرئيس فحسب، بل العار أيضًا. وقد يحق للرجل أن يطلق زوجته إن لم تجب له ورثة. وهكذا حكم على

العديد من زوجات النساء والقرسان بأن يعيشن حياة تقتل في الأثير، في حين كان أزواجهن يعيشون على نساء آخر. والمرأة الفنزنجية في تلك العصر كانت المرأة الطيبة الجيد، الخصبة الرحم، والقلارة على إدارة شؤون البيت وتصريفها. وقد انعكست الأهمية الممنوعة لخصوصية المرأة في سلسلة من الأساطير المحظكة حول هذا الموضوع. منها أسطورة زوجة الكورن هيبرغ التي أُنجبت 364 ولاداً... وعند المعمورية، سعي جميع النكور باسم إيفان، وجمع الإناث باسم البزايست.

لكن ما كانت مهمة المرأة لتفت عند حدود الإنجاب. فقد كان من واجب الزوجة، والأم، وربة البيت، أن تشرف على قرية أولادها وأن تضرب لهم العدل الصالح. وأهم قوانين الحياة وأكثرها بليلاً آنذاك كان يدعو إلى الاتصاف كلياً، دون قيد أو شرط لإرادة الرجل. وقد أشاد العديد من نصوص القرون الوسطى بهذا العدل الأعلى عن المرأة. وفي مؤلفاتهم حول أذاب الملوک، أقاض المنافقون عن النظام القائم في توزيع الإرشادات المفيدة على نساء طبقة النساء والنسائح الحكيمه على أزواجهن.

لكن ما الأهمية التي كان يمكن لعمل المرأة العائلي أن يرتديها في مجتمع قائم على القوة، وعلى عمل الأثقان، وعلى الاندماج الكلي لحقوق المرأة الإنسانية؟ وفي أي مجال من مجالات العمل الاقتصادي، كان يسع المرأة أن تشارك مشاركة فعالة؟ في القرن الرابع عشر داع صبيت الكاتب الإيطالي باربيرينتو لأنها نسخة القنوات الشابات بأن يتصرفن ببنبل وروقار، أي بأن يلزم من يحيون ويساعدن أمهاتهن في أعمالهن المنزلية. وكان باربيرينتو يرى كذلك أنه من الأسباب أن توفر الفتاة على نفسها عناء تعلم الكتابة والقراءة. وفي كتابه قواعد الحياة المنزلية وزع الكاهن الروسي سيلفستر نصائح معلولة على بنات عصره.

كانت هذه العلاقات تدعى الأزواج إلى السهر على زوجاتهم كي يعشن في الفضيلة وفي خوف الله. وتحقيقاً لهذا الهدف كان يسمح للرجل باللحوء إلى العذاب الحسى أو إلى أي وسيلة فعالة أخرى. لكن عندما بلغ التنظيم الاقتصادي الإقطاعي ذروته (1200-900) أصبح في إمكان النساء الأستغرارات الحصول على قسط لأنق من الطعام والتغذية، وذلك على الرغم من عمليتين داخل الأسرة. فنقيات الأسر التالية ما عدن يكتفين بتعلم الخياطة، والغزل، والنسيج، بل أصبحن يتعلمن أيضاً القراءة، والكتابة، والغناء، والرقص. كما ببن يحصلن، علامة على ذلك، على بذلة في علوم العصر. وكمن يتعلمن أيضاً اللاتينية بصورة عامة.

كان التعليم في الأثير الإنجليزية يشتمل على القراءة، والكتابة، وحفظ الكتاب المقدس، والعربيقى، والحادية بالمرتضى، والرسم والطبع. وكثيراً ما كانت النساء يتعلمن اللاتينية (جميع العلاقات الطبيعية في ذلك العصر كانت مكتوبة باللاتينية). بل قد يكون لأنفسهن رصيناً لا يأس به من المعلومات الكلية وذلك في وقت كان فيه الرجال - من فرسان وجند أشواوس - أهين في غاليلتهم. وكثيراً ما كان يظهر الفرسان، والقبائل العظام، وملوك الأرضيات الشاسعة إلى الاحتياط برسالة حيثتهم طبلة أسلوب، إلى أن يصالقو رفيقاً في السلاح بعد القراءة فيطلعهم على محتواها. وكان يتعظمن بليجاً إلى خدمات العنتشين لفراسلة العجيبة التي كانت توفره بإنها تراسل حسبيها. وقد كانت، بفضل رسول العتشي، تتعرّج بتعاطف عميق مع «روج» الحبيب. ولتصور ملأاً كان سيحصل فيما لو اكتشفت أنها كانت تفتح قلبها لكاتب بالأجرة... لقد كان فولغرام فون أشتباخ، وهو من أشهر الشعراء الغزلين في ذلك العصر، يعجز عن كتابة شعره بنفسه ويطلب إلى النساء من معارفه نسخها.

وينقل إلينا التاريخ قلعة طويلة يسماء نساء كاتبات ومحفظات اشتهرن خلال تلك السنوات القاتمة من العصر الوسيط الأعلى. وتنكر من يعنون على سبيل المثال الراهبة هيلاغارد - التي عاشت في القرن الحادى عشر - والتي ذاع صيتها كفلسفية وقد دخلت هذه الراهبة في صراع مع الكنيسة ورفضت أن تتخلى عن آرائها الخاصة، وجهرت بتصوراتها حول قوى الطبيعة والحياة. وكانت آراؤها تتطوى على قدر من الخطوية، أي إنها كانت تعتقد بأن الله ما هو في الحقيقة سوى القوى المتناوية في كل ما هو حي. وفي تلك العصر أيضاً وضعت الراهبة الألمانية هيرلا دون لانسبرغ كتابها العلمي الشهير حديقة المبادر الذي احتوى على مبانٍ أساسية لعلم الفلك والتاريخ وسواها من علوم ذلك الزمن.

في القرنين الحالي عشر والثاني عشر افتتحت أيضاً العadoras الملحقة بالأثيرية والتي وفرت للقتيبات تعليمها رفع السورة... وفي القرن الثالث عشر عاشت في فرنسا راهبة تدعى هيلين، وقد ذاع صيت الرسائل الفلسفية التي تبالتها مع صديقها إيلتر<sup>11</sup>. ولم تكن الأثيرية آنذاك ملائكة للتعطل، والتجوؤ، والرثاء. بل كانت، على العكس من ذلك، مركز عمل ونشاطه، وتحت سقفها كتبت أولى الدراسات العلمية والفلسفية. وكان العالم المعجتب بها موصوماً بالتصويمية، وبأعمال العنف، وبالجهجنة. لذلك كان من الطبيعي أن يلغا إلى الدين كل راغب في حياة استقرار وهدوء تسبّب نسخه بالتأهل وبالإنكباب على البحث العلمي. الأثيرية إذن لم تكن ملائكة للزوجات العقيمات والقتيبات المغويات فحسب. بل كثيرة ما كانت تقطن إلى بين نساء متعررات، غير راغبات على الإطلاق في الزواج من رجل كانوا في نظرهن من المستبددين والمحضطهدين.

لهذا السبب نجد أن معظم النساء اللواتي لمعن أسماؤهن في عالم العلم والأدب بين القرنين العاشر والثاني عشر، كن من الراهبات.

<sup>11</sup> - بير نيلتر: لاوري وفيليبرت سوكولاني فرنسي (1142-1079)، اشتهر ببرائحته مع جبيته هيلين، له كتاب يعرف باسم نعم ولا طلب فيه بمن يقتصر الإيمان الدينى على «النقدات العقلية» وكشف عن بعض تناقضات تعاليم الكنيسة. وقد أدانته الكنيسة الكاثوليكية بالهرطقة. -

لكتنا سوف نجد فيما بعده - بين 1300 و 1400 - نساء يعشن على العلم خارج الأثير، بل يمارسن مهنة تحريره علينا فعند القرن الثالث عشر كانت قد ظهرت أستاذة في مدينة بولونيا، في إيطاليا، في واحدة من أشهر جامعات ذلك العصر. وهذه الأستاذة التي كانت تدعى أندريا كانت على ما يبدو على قدر كبير من الجمال. وكى لا تخضرط طلبها لدى مشاهدتها كانت تلقى دروسها من خلف ستارة وقد درست أبنتا أندريا، ترفيلا وبيينا، في الجامعة نفسها. وذاع صيتها في عالم القانون. ونخص بالذكر من بين النساء اللواتي عرفن شهراً كبيرة في حقل العلم والقانون، الباتورا سانفيفيلي وتوبورا دالتى، العالمتين في الرياضيات، وملين بوروسيور، مؤلفة دراسة هامة حول بيت الزوجية.

يد أن النساء لم يتميزن في العصور الائمة والعلمية فحسب، فقد لعبت معلمات عن الطبقية الإقطاعية دوراً سياسياً لا يستهان به في العصر الوسيط ولا سيما بين القرنين التاسع والعشرين عشر. وخر للدل على ذلك الكونستان الحاكمة ماتيلدا دي توسكانا وأدلايد دي سفوا فماتيلدا، الكونتيessa القوية والأبية، حكمت مدينة فلورنسا التجارية والحرفية الغنية. وكانت ماتيلدا قد تزوجت من حاكم توسكانا العسكري وورثته، بعد وفاته، سائر أملاكه الشاسعة مع أنها كانت، في نظر القانون، لا تحمل سوى لقب كونتيessa. وقد كانت هذه الكونتيessa النشيطة تصر على ترؤس الجلسات القضائية وعلى تنفيذ الأحكام بترقيعها. وبمحظوظ أرشيف فلورنسا يوثق هامة عن أحكام الكونتيessa ماتيلدا، وقد تعيّز ذلك العهد باحتدام التفاهم بين البلا والإمبراطور، أي بين الكنيسة والدولة ماتيلدا، التي كانت تربطها صداقة شخصية بالبابا الذاهية والتقوى غريغوريوس السابع، عارضت الإمبراطور ومنحت في وصيتها سائر ممتلكاتها للبابا، الأمر الذي عزز سلطة هذا الأخير. وقد تحولت جامعة بولونيا إلى مركز ثقافي هام لأن ماتيلدا كانت قد جاءت إليها برجل القرون الشهير أرنيريوس.

الكونتيessa أدلايد دي سفوا، التي عاصرت ماتيلدا، كانت تتولى بعفردها إدارة أملاكها الشاسعة - مع أنه كان لديها ابنان - كما كانت تمارس السياسة مؤرخو تلك الفترة قللوا عنها إنها كانت «أميرة أبية وقوية»، تجرأت على تحدي البلا، العظيم السلطان آنذاك، وعلى تحديد الإمبراطور. لكنهم قللوا عنها أيضاً إنها كانت طيبة وعالية لكنها في الواقع لم تهتم بحماية الضحايا بقدر ما اهتمت بتعزيز استقلالية منها وبنقوية سلطتها الشخصية. وكانت الأميرة آن، ماتيلدا وأدلايد، تتمتع بثقافة عملية واسعة وتقدير كان أهمية العلم في تطوير أملاكها. ولا ريب في أن هاتين المرأةين كانتا تشكلان استثناء لقاعدة عبودية المرأة، لكن وجودها في تلك الفترة الحالة من التاريخ هو غير دليل عن حاجة المجتمع إليها.

فلمرأة التي كانت تجيد القراءة والكتابة والحساب كانت بالطبع أكثر فائدة من أمراة جاهلة ومحونة. فلعلم كان يسر لها مراقبة التفاصيل والمداخل. ووضع العبرانية، وقبض دون الفلاحين، وتقدير حاجات القصر من منتجات وسلح مختلفة. والواقع أن تلك العصر ما كان مطالبات بالعمال فحسب، وإنما بالذكاء أيضاً ليقن بدورهن كهنظمات للاقتصاد الفنزلي. ثمة مؤرخ من القرن الثاني عشر كتب يقول إن زوجة الدوق روسر دي كالابر كانت تتمتع سائر الصفات المطلوبة في المرأة: «عراقة الأسرة، والعمل، والذكاء».

ومن جهة أخرى كانت النساء ينتزن عن الإعجاب والتقدير عندهما كمن يزاولن مهنة التطبيب. وقد بتنا نعرف الآن أن النساء قد اهتمن بواستئصال بالعرضي. فعند عصر الشوعية البدائية كمن يلجان إلى الأعشاب لمعالجة بعض الأمراض. وفي العصر الوسيط كان في التطبيب لا يزال ضعيف التطور. فالتفيل وهذه كان يستطيع استشارة الطبيب. أما الآخرون فكانوا يتذمرون أنهم يعذرون أنفسهم بغير دهن وينظرن لهم جرحى والمرضى، إلى مركز طبي يؤمنه الفلاحون من المناطق المجاورة.

هكذا لم يكن التصر يرحم، في نظر الناس، إلى استبدال العروى فحسب، وإنما أيضاً إلى الإسعاف والمساعدة. لذلك كان من العفيف أن تجيد سيدة القصر فن الاعتناء بالمرضى. فلما ذاتت تفشل الجرحى والمشوهين من براثن الموت، وتنحن الشفاء بعقاربها، وتساعد نساء الفلاحين ساعة الولادة، كان رحى العروى يغرون له فظائعه.

لقد كان الطب في العصر الوسيط وفقاً على المرأة فالمرأة المثلث، كما وصفتها أسطoir عديدة، كانت تشفى المرضى. وبالأكمل باراسيلز، وهو من أشهر أطباء القرن الوسيطى، إنه تعلم من النساء أكثر بكثير مما تعلم من كتب الطب، الخامضة والغضالة أحياناً وعندما علا الملك لويس التاسع، في عام 1250 من حملة صليبية إلى القدس، من التهاب عاليه برائحة يقر بها فيها بفضلها وحسن صنعتها. وقد احتلت أمراة، هي دوروثيا بوكا، مقعد الطب في جامعة مدينة بولونيا في القرن الخامس عشر.

لم يكن الطب آنذاك يقوم على أساس هرائق من العلم، بل كان يعتمد إلى حد كبير على السحر والمعتقدات الباطلة. ولم يكن تشريح الجسد الإنساني معروضاً بعد. ولما كان في التطبيب مرتبطة إلى حد بعيد بالسحر وبالتعاونية وبالرقى، فقد كان يعتبر بشكل عام فنا سحيرياً المرأة «العنقرة» لم تكون سوى ساحرة؛ ولن كانت تعرف كيف تعتنى بالناس، وتحكم بحياتهم، وسلامتهم، وصحتهم، فذلك لأنها كانت على اتصال مع قوى الشر. كان الجميع يخشاها ويحترمها. لكن مع تبدل الظروف الاجتماعية والاقتصادية أصبحى علم هؤلاء النساء في ميدان التطبيب ضرباً من اللعنة.

وسرعان ما طورن ولوحقن كساحرات ومشعوذات واتقنهن على المحارق التي نصبت لهن في شتى أنحاء أوروبا. وقد التهمت ألسنة النار العلات، بل الآلات، بهن عشرات الآلاف من النساء لا شيء إلا لأن أيام الكنيسة كانوا قد اشتغلوا بالفامتن علاقات مع الشيطان.

وسوف تتحدث بعريض من التفاصيل عن محاكمات الساحرات في محاضرتنا المقبلة، لأنّ الأن فسوف نوجز خصائص وضع المرأة البديلة في عصر الإقطاع.

لقد كانت، بفضل نسبها العريق، تحظى بالاحترام وتحتفظ ببعض الحقوق. وفي خارج نطاق أمرتها، كان الفارس يخاطبها بالاحترام وإعجاب، لكنها ضمن أمرتها كانت تجد نفسها محرومة من الحقوق، مثلها مثل أي فن من أفنانها.

عندما بلغ التنظيم الإقطاعي ذروته (حتى القرن الرابع عشر تقريباً) نالت زوجة العولى الإقطاعي، المكلفة بإدارة هذا الإقطاع، قسطاً من التنظيم. وقد عهد إليها كذلك بتربيه أولادها، لكن مع تطور التجارة، فقد هذا الشكل من التنظيم الاقتصادي أهميته، الأمر الذي أدى إلى الانقسام من قيمة عمل المرأة وأصبح العمل مقابل الثروة الأساسية. وحكم على المرأة بأن تصبح مجرد آلة للإنتاج. فكان أن تحولت إلى كائن طفلية، اسيرة بزيارات الأثرياء من مواطنين أثيناً، وهكذا كانت عن هرaque عمل العذابين ومناظرة العذابين المكبلتين بالباتكار الرسوم الترسنية الجديدة. ولم تعد تتفق في أوضاع الطواحن، ولا تهتم بصنع الأسلحة والذروع. فروع الإنتاج هذه ما عادت تشكل جزءاً لا يتجزأ من التنظيم الاقتصادي الإقطاعي. لقد انتفت من القصر إلى المدينة أو إلى هري الفلاح. ولم يحظى القصر إلا بالعمل المنزلي في معناه الخسيق، أي بعمل البيت. وقد تخلت السيدات البديلات عن هذه المهام المنزالية لصالح خدمهن أو وكلائهن. وسرعان ما أصبحت العيوب، والغباء، وضيق العقل، المبرودة عن حياة البطلة والكبل، القاسم المشترك بين النساء.

نستطيع أن نلاحظ إذن كيف أن انبعاث التنظيم الاقتصادي الإقطاعي، القائم على مبدأ الاكتفاء الذاتي، والمعتمد على أساس الاقتصاد الطبيعي، قد أدى إلى تدهور سريع في المستوى العلمي والثقافي للنساء المنتسبات إلى طبقات المجتمع الراقية. وقد يبدو لنا ذلك غريباً للوهلة الأولى. لكن كيف تردد، لو لا ذلك، تفسر ظهور نساء بمثل هيلاغارد وتقافتها خلال ظلمات القرن العاشر، في حين تميزت نساء القرن السابع عشر والثامن عشر بمحاججهن، وضفت ثقافتهن، وبعملهن للطهير والأبطيل، وبشققهن بالقرفة وغيرها من أبواب التسلية المسطحة؟ هذا ما يؤكد لنا، مرة أخرى، أن وضع المرأة وحقها في الكرامة الإنسانية وفي العلم يخضعان دوماً لمساهمتها في الاقتصاد وفي الإنتاج.

## المحاضرة الرابعة: العمل النسوي في المجتمع الزراعي وفي الإنتاج الحرف

سنعد الآن إلى تحليل شروط حياة الطبقات الأخرى. فكانت تعيش نساء العدن والأزياf في القرون الوسطى، وما الحقوق التي كن يتعين بها؟ سنبدأ بدراسة أوضاع الريفيات. ومن الصعب في الواقع أن تتحدث عنهن من زاوية الحقوق في عصر ظالم كالقرن الوسطى حيث كانت السيادة المطلقة من حق الأقوى. فاللاتحرن والفالاتحات كانوا أقنان «سيدهم». وكانت سلطة ملاك الأرض على الفلاحين لا تعرف من حدود.

كي تدرك طبيعة العلاقات التي قامت بين الفرسان والبوار أو البلاط من مالكي الأرض وبين الفلاحين، يجب أن نستوعب أولاً ونتفهم بشكل واضح أنسن النظام الإقطاعي. فاقتضى النظام الإقطاعي كان يعتمد اعتماداً كلياً على الملكيات الكبرى، الخاصة للسلطة المطلقة لملاك الأرض الذين كانوا يهيمنون على البلاد، أي الفرسان والمحاربين. وكانت أراضي الإقطاعي وحقوله تزرع من قبل الفلاحين الذين كانوا لا يتصورون إلا بتوئيمات صغيرة من الأرضي العائلية لم يكن الفلاحون عبداً، كما كانت الحال في العصور القديمة اليونانية والرومانية والمعصرة (فالملاك كان ملكاً لسيده وبالتالي لم يكن حرراً، بينما كان فلاج القرون الوسطى ينعم بحريةه) لكنهم وجدوا أنفسهم في حالة من الخضوع الاقتصادي والسياسي تحت عليهم حياة الاستعباد؛ وسر عان ما تحولوا بالفعل إلى أقنان المالك الإقطاعي.

لقد كان الفرسان والبوار يحتظون لأنفسهم بفضل الأرضي بطبيعة الحال. وكان الفلاحون، المأمورون وراء لقمة العيش، يضطرون إلى استئجار الأراضي المملوكة، مقابل أجر مرتفع يستدلونه بالعمال تارة وبمحاصيلهم طوراً، كما كانوا ملزمون بتوكية عدد من السخرات الروحية لمسيدهم في البداية، لم تكن هذه العلاقات خاصة لأي نظام قديمي؛ فالقوانين الناظمة للقانة لم تظهر إلا في وقت متأخر (في روسيا، هناك ظهرت هذه القوانين في القرن السادس عشر). إننا هنا إذن بصدمة نتيجة من تتلاع قانون الأقوى الذي كان يعني السيد سلطاناً مطلقاً على الطبقة الفلاحية.

لم يكن الإقطاعي في القرون الوسطى يملك الأرض فحسب، بل سلطات سياسية فائقة أيضاً. وكان ذلك يعني، على الصعيد العالمي، أنه يستطيع التحكم فيما داخل أراضيه. فقد كان يصدر القرارات، ويوجه الضرائب، وفرض العقوبات بما فيها عقوبات الموت، ويزرع الإقطاعات. وقد بات كل مالك إقطاعي كبير يسود على مجموعة من صغار البلاط والملاكين الذين كانوا يخضعون لطاعته، والذين كانوا يدورون بيدهم دونهم مرنة. وهكذارأى التور تسلل البلاط البريء للقائم على خضوع التابع للسيد على خضوع الذي كان يدوره تبعاً لمكتوب أعظم... وقد ضممت هذه الشبكة من الخضوع والتبعية العبدان استقرار النظام الإقطاعي ودامت سلطة الأمراء والبلاط. وقد حكم على الفلاحين، داخل هذه السلطة الإمبريالية، أن يعيشوا حياة تخلص على التور التالي: انتساب أعلى برادة السيد، وتتحول الجزء الأعظم من ثمار عمل مفن وشاق إلى سلة القصور.

ما كان وضع الفلاح يتغير بشيء عن وضع الفلاح. فكلما كان يعدل، بلا كلل ولا همل، من الصباح حتى العشاء، ولا يجني مقابل هذا الكد والشقاء سوى الاحتقار وانعدام الحقوق. فوجدهم مالكوا الأرض كانوا في ذلك العصر ينفعون بالاحترام والحقوق. وكون الفلاح مستيناً اسوة بزوجته كان يساهم في تقلص، إن لم نقل في إلغاء أوجه الاختلاف والتباين بينهما. فالرجل والمرأة كانوا يرثيان تحت نير النظام المملوكي.

لكن في إطار حياة الأسرة كان القن، على الرغم من استبداده وحرمانه من كل حق، يتصرف مع زوجته وأولاده وكافة ماله بغير علم. فكما كان القارس في قصره يتحكم بزوجته حاملة الأنقب البليدة، كذلك كان الفلاح يعلام وصبية على أمرائه. وإن كان يحقق للقارس أن يراه على زوجته في لجة ترد أو أن يسجّها في التير، فقد كان يحق للفلاح أن يطرد زوجته من الأرض التي يستثمرها أو أن يبعها بالغزال الطني في ساحة السوق. وعندما فرضت الملكية الخاصة نفسها لدى الطبقة الفلاحية، توطن الحق الأقوى، وبالتالي حق الزواج على المرأة وأولاده. وقد راح الفلاحون يدورون بعدهم يعتقدون الزيجات القائمة على المصلحة لا على الحب. والواقع أن زيجات الحب غالباً ما كانت تعارض من قبل السيد الذي كان يأمر بإيقان من الخليفة الفلاحية بعذ قرانه على ماريا من ضيعة أخرى. وهكذا كانت الفلاحة تختصر إلى خدمة سيدتين في آن واحد، مولاها الذي كانت تدين له بقوة يومها، وزوجها.

ولم يكن القارس وأولاده يراغبون فلاحاتهم بشكل من الأشكال. فمن أجل «سيدة قلبها»، البليدة الأصل طبعاً، كان القارس يسرم البليبي الطوال، حافي القدمين رغم البرد القارس، ليعطي البليبي على جبهة ووفاته. لكن هذا القارس عينه كان يتصرف مع نساء الفلاحين وبناتهم بطريقة شائنة، وقحة. فكى يدخل البهجة إلى جلسات سكره وعربته، كان لا يترعرع عن إصدار أوامره بطبع سائر نساء القرية المجاورة. وإذا ما حصل أن ذلك إحدى الفلاحات إعجاشه، طرد زوجها من بيته ليستقرد بها. وقد كان يحق للسيد، في اللحظة التي يشاء، أن يحول عرصات قصره وملحقاته إلى حريم. وهكذا تجد أن الفروسية، التي كانت تتعنى شرعاً بعظام المرأة ومجدها، كانت تسحق بلا رحمة إرادة نساء الشعب وعواطفهن. لقد كان عصر قائمها وحافلاً بشتى أنواع العذابات والشرور.

لم يثر الفلاحون على تجاوزات سلطتهم إلا في نهاية العصر الوسيط. وقد لعبت النساء دورا هاما للغاية في الثورات الفلاحية، فعندما اندلعت الثورة الفلاحية الفرنسية في عام 1358، أبادت النساء عن حملة فلاقة في حرق القصور وفي قتل سكانها بالذروض والمذاري. وقد صدرت أعمال مماثلة عن نساء طائفة اللولارد في إنكلترا (طائفة دينية غالب عليها الطابع الاجتماعي، ازدهرت خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر، و تعرضت لاضطهاد قاسٍ)، وعن نساء فلاحي المانيا، وعن نصیرات توماس مونتر.<sup>12</sup> وبصفة المزارعين الفلاحات الناشرات ككائنات حقدان، بلا إحساس، تعويات، متقوقات في قبورهن على الفلاحين الثارين. لكن لم الاستغراب؟ فقد كانت الفلاحات يعيشن حياة بؤس وحشى من جراء القوانين والعادات المجنحة والمعيبة عن الحق الأبوى. كن يخضعن لسيطرة رب الأسرة ولا يتجاوزن في القر قدر البهيمة. يحرزن الأرض، ويبحسن، ويحرسنقطاع، وما من عمل، مما مسبّب، كان يعبر شفلا بالنسبة لهن. وشروط الحياة هذه لم تتبدل على كل حال إلى اليوم في بعض المناطق النائية والمعتقلة من رومانيا وفي غيرها من البلدان المختلفة اقتصادياً. فقد كانت الفلاحة مستبدة الحقوق مع إتها كانت تحمل في الإنماج مكان الفلاح تماماً. فكيف يمكن ذلك؟ سبق أن قلنا أن النظام الاقتصادي في العصر الوسيط كان يقوم على الملكية الخاصة. والحال أنه حينما تمت الملكية الخاصة لا يحل مكانه الصدار العمل أو تبيّنه العباشرة – صنع السلع الاستهلاكية الضرورية – بل تتعلى كل الأهمية لبعض المداخلين التي تُجيّس، عن طريق استخدام حق الملكية الخاصة، من عمل الآخرين، أعني الآرهاج. أفنّ تذكر ولا رب أن السيد في اليونان كانوا المنتجين الطيبين للتزروعات كافية، وأفنّ ثروات! لكن مع ذلك لم يكن عمل الرفق يرتدي أي أهمية في نظر الإغريق. فقد كان الرفق مجرد قوة عمل، ومن يستعمل قوة العمل هذه كان وحده مفترقاً به اجتماعياً. ولم يكن الأمر يختلف بالنسبة إلى عمل الأقنان. لقد أدى قيام الملكية الخاصة إلى تقسيم الأراضي الزراعية إلى وحدات صغيرة مستقلة، بدأ ملكية العروج والغبات ظلت متساوية وقد صار لكل قن قطعة أرضه الخاصة، أرض تعود ملكيتها لزوجها للرجل – الزوج أو الأب أو الأخ – وليس للمرأة. وهذا التصور للحق القائم على التقليد الأبوية قد تتطور فيما بعد وتتعزز.

لكن يتبع مع ذلك أن تأخذ بعض الاعتبار الناحية التالية: لقد كانت المرأة، على الرغم من حالة التبعية المفروضة عليها داخل أسرتها الخاصة، تقم بقدر من الاحتراز والتقدير داخل قبيلتها، ولا سيما لدى المجتمعات المنحدرة من الشعوب الزراعية القديمة التي عرفت نظام الأمومة في مرحلة من مراحلها. فيما يتعلق بوضع المرأة، لم يكن نظام القنان عند الفرسان والإنكلز والألمان يرتدي الأشكال القاسية التي تميز بها عند قبائل مربى الماشية كقبائل الهون<sup>13</sup> والتر التي روتت بحملتها وغزوتها فلاحي أوروبا المسلمين. إن الصراع بين شكلي ملكية الأرض، أي بين الملكية الخاصة من جهة والملكية المشاعية من جهة أخرى، لم يكن قد شارف بعد الانتهاء. في روسيا ظل حق الفلاح الجماعي قائمًا لفترة طويلة من الزمن بفضل نظام العير، ولم يلغ إلا في عهد القيسار نيقولا الثاني ومع صدور قوانين الوزير ستوليفين. كانت المرأة، بالنسبة إلى الاقتصاد القرية، تمثل قوة عمل هامة فالازدهار كان رهن عملها وعمل الفلاح بالتساوي. لهذا السبب خولت حق المشاركة في مداولات أهل القرية ومناقشاتهم، في حين كان يختتم عليها لزوم الصمت في البيت عندما يتداول حموها مع زوجها مثلاً. وفي المجتمعات القرية كان الشيوخ أنفسهم يبدون عن استعدادهم لسماع رأيها. وعند تقييد كان يسمح للنالحات في المناطق الروسية بالمشاركة في اجتماعات القرية في انتشار أزواجهن أكثر على الرغم من فقدانهم لحقوقهم المترتبة عن الأسلاف ومن تعزيز صالحيات رب الأسرة. ولم تبدل هذه الأوضاع بالنسبة إلى الفلاحة إلا مع ظهور قانون الكفة والمذلل. وكان هذا القانون يحمي على المرأة، في حال سفر زوجها إلى الخارج، أن تعيش مع حبيبها وتقيم معه علاقات جنسية.

لكن مع ذلك يبقى وضع النالحة القن أفضى من وضع السيدة القبيلة من ناحية من النواحي على الأقل. فمع أن السيد كان يمارس صالحيات مطلقة على النالحات، ويتحكم بزواجهم وطلاقهم، ويتمتع بحق الليلة الأولى إزاء سائر نساء إقطاعيته، فإن زواج الحب يتقى مع ذلك أكثر انتشارا بين النالحات منه بين النساء. وكانت فرنس بنت النالحات في انتشار أزواجهن أكثر من فرنس بنت الأستقراطين. وهذا ما تشهد عليه الأغانى الشعبية والأسطoir.

وتحضر الإشارة إلى أن بنت القراءن، إن أقامت على إقامة علاقات حميمية مع رجل قبل زواجهما، أحقت العار لا يشخصها فحسب وإنما ينشرتها أيضاً، وامتنع أي رجل فيما بعد عن عقد زواجه على لها؛ أما لدى الفلاحين فقتل هذه العلاقات ما كانت ترتدي أهمية مغالي فيها! لماذا؟ لأسباب اقتصادية، فعند فلاحي تلك العصر كانت قوة العمل موضع تقدير فائق نظراً لشروط العمل الزراعي الصعبة. فقد كان كل ولد يمثل قوة عمل إضافية، وبالتالي مفيضة للإقتصاد الفلاحي. ولهذا السبب أيضاً كان الفلاح يكفي نفسه مع حق الليلة الأولى – أي حق السيد في تخصية ليلة الزفاف الأولى مع العروس – ولا يجد نفسه مضطراً إلى طرد زوجته؛ والواقع أنه ما كان يرى من ذلك منتهي الخزي والعار، وإنما مجرد محة من عجة ليس أكثر. وقد تبدلت هذه العادات فيما بعد، مع تغلب الطابع الفردي على

<sup>12</sup> - من رواد الحركة الاصلاحية الروسية، أنس طائفة التعمدات، وقطعت رأسه في عام 1525. -

<sup>13</sup> - قبائل نميرية اجتاحت أوروبا في القرن الخامس وراقت فيها قبلاً. -

الاستمرارات الزراعية وتقلص مساحات الملكية المشاعية. وهذا أضحي الأب يطرد ابنته إذا ما حملت قبل الزواج، والزوج يجلد زوجته جلداً مبرحاً إذا ما اقرفت الزنى.

لقد ترافق ظهور الملكية الخاصة لدى الطبقة الفلاحية بتفاقم وضع المرأة التي أصبحت حياتها لا تطاق بعد أن تجررت من سائر حقوقها. وقد أضحي «القرن النسوى» المزعوم نصيب الفلاحات حينما انتشرت سلطة المالك الكبير العبيدة، أي في كل نظام اقتصادي قائم على القناة وملكية الأرض الخاصة

\* \* \*

تستطيع بالختام أن تصف وضع المرأة الأرستقراطية والريفية على النحو التالي: خلال العصر الوسيط، وأسباب التصعيدية محضة، لم يكن ثمة احترام لا للمساواة، ولا للاستقلال، ولا لأى حق إنساني جوهري.

والأأن ستناول وضع المرأة المعمدة إلى الثلة الاجتماعية الثالثة، إلى الورجوازية<sup>14</sup>، التي ستقسم فيما بعد إلى طبقتين متعرضتين ومتذارعن، الورجوازية والبروليتاريا. لقد سبق أن تحدثنا عن ولادة العدن. فقد تطورت أساساً انطلاقاً من فراة الأسواق التي كانت تشكل محاور التجارة والتسللات، وكان يعيش في العدن التجار والحرفيون في المعرفة الأولى. وعندما تحدث عن الورجوازيات، فإننا نقصد عادة نساء الحرفيين والتجار اللواتي لم يكونن أبداً دور مستقل. وقد يكون مرد هذا التفاصيل إلى تعامل التجار في معظم الأحيان مع البضائع الأجنبية، الأمر الذي كان يقتضي تحرراً وقدرة على التحرك افتتحتها المرأة. ففي نهاية العصر الوسيط فقط (أي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر) أضحي قبائل الملح يتم عن طريق تجار وسطاء بدلاً من أن يكون مباشرة، كما كانت الحال حتى ذلك التاريخ، أي بدلاً من أن يكون مباشرة، كما كانت الحال حتى ذلك التاريخ، أي بدلاً من أن يتم بين حرف وفلاح أو بين حرفين ينتهيان إلى مهنيتين متباينتين.

لقد كانت المرأة في طبقة التجار محضنة وزوجة لي أن معاً. وكان نشاطها الإنتاجي يقتصر على العمل المنزلي، البالغ التعقيد في الواقع، نظراً إلى التزامه بتلبية سائر الحاجات اليومية. يد أن هذا العمل المنزلي لم يكن يلبي سوى الحاجات الأثنية ولا ينبع أي سلعة ثمينة. لهذا السبب لم يكن عمل المرأة موضع أي تغير. ولدى طبقة التجار في العدن، كان الرجل هو رب العائلة ودعالمتها الوحيدة يشكل عام

لكن الأمر كان يختلف تماماً بالنسبة إلى نساء وبنات الحرفيين الذين كانوا يعيشون من عمل أيديهم، لا من وراء ربع مجتى من بيع سلعة أجنبية أو من عمل المساوية غير المنتج. فكلما كان الحرف يبيع المزيد من الجزمات، أو الطاولات، أو الخزان، أو السروج، أو النبات، كانت شروط حياته تتحسن أكثر. وكان من الطبيعي وبالتالي أن يبحث الحرفي عن مساعدة في عمله لدى زوجته أو بقية أفراد عائلته. فهذه المساعدة كانت أهلة الزوج في إنشاء ورشة. فكلما ازداد عدد الأيدي، تحسن العمل وتقدم بسرعة أكبر. وكان الزبائن يفضلون التعامل مع المعلمين الذين ينجذبون الطلب بسرعة وقت معهن. الأمر الذي كان يضطرر الحرفيين العازبين إلى استخدام مساعدين كي يستطيعوا منافسة العرفيين المتزوجين وأصحاب الآخرين. كان الحرف يستخدم إذن صناعاً ميتفين، كانوا يتطلعون المهنة بدورهم ويصبحون فيما بعد من العرافاء. وهكذا رأى النور نمط جديد من الإنتاج، الحرافية يحصل فيه المعلم الحرفي قمة البرم بينما تشتعل قاعدته طوابير من الصناع والرفاء الخامسين للمعلم. ولم يكن هؤلاء الآخرين عبيداً، وإنما شغيلة أمغار يعطون تحت إشراف المعلم وتجهيزه. وقد تجمع الحرفيون في منظمات، مشكلين الطرائف الحرافية، وذلك بغية تنظيم العلاقات بين الزبائن والحرفيين والتخفيف من حالة المنافسة التي هددت فطلياً مستوى حياة الحرف. وبذلك تكون الصناعة الحرافية قد تواجهت، جنباً إلى جنب مع القناة الفلاحية ليستكمـل بها النظام الإقطاعي أبعاده.

\* \* \*

لعبت المرأة دوراً هاماً في العهن الحرافية، ولا سيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر. وفي بعض الروابط الحرافية طغى عمل النساء ورجحت نصفه في حرفة النسيج على سبيل المثال وصنع الدانتيلات بالمعزل، ومنع الجوارب، الخ. وكان المعلم، حتى القرن الرابع عشر، يختار صناعته من بين الفتيات والصبيان على حد سواء. وكانت النساء يعملن مع أزواجهن فإذا ما توفى الزوج ورثت الزوجة ورشة العمل ولقب المعلم؛ غير أنه لم يكن يحق لها التعاقد مع صناع جلد. لهذا السبب كانت تحضر إلى الزواج من أحد عرافاء زوجها كي تستطيع أن تستمر في عمله. وكان العريف يصبح مطماً بدوره؛ ولم يكن يتعذر بحرية تامة في إدارة أعمال الورشة قصباً، بل كان يحق له توسيعها أيضاً.

<sup>14</sup> - المقصود بالورجوازية هنا معاها الأول، أي طبقة سكان العدن أو البروج. - -

وفي الفترة ما بين القرن الثاني عشر والقرن الرابع عشر انتشر عمل النساء في عد من المهن الانكليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية إلى حد أضحت معه بعض الروابط الحرافية لا تضم في عضويتها إلا عاملات حرفيات.

في القرن الرابع عشر على سبيل المثال تساوى عدد النساء مع عدد الرجال في 495 رابطة حرفة من أصل الروابط الخمسة الموجودة آنذاك في إنكلترا، وشة قانون أصدره الملك إلوراد الثالث في منتصف القرن الرابع عشر يعطينا فكرة عن أهمية عمل المرأة في مختلف الروابط المهنية، فقد تضمن هذا القانون قواعد منظمة لعمل النساء في مصانع الجعة، والأقمار، وورشات النسيج، الخ. وشة مهنة نسويتان عرفتا انتشاراً واسعاً في إنكلترا: إدارة الفنادق وعمل النبات. وقد اعتبرت صناعة الجعة كذلك عملاً نسرياً مميزاً. وقد فرضت النساء أنفسهن بشكل خاص في المهن التالية: النسيج، ودمع العقائش، وغزل الكتان، والتقطير بالغروط الذهبية، وصنع الشموع، والخيطة، وإدارة الفنون، وصنع الدانتيل والجوارب والترابات.

العمل والعمل في الحمامات كانتا على التوالي على النساء. وقد مارست النساء أيضاً، منذ قديم الزمان، مهنة تزيين الشعر. وللن استعمال على المرأة القحام عالم تجارة الجملة، فإن تجارة الفرق بالمقابل كانت أن تكون حكراً لها. ولأنها في أواخر العصر الوسيط، فلطالما ذات النساء في الأسواق على الأجاج، والأرز، والزهور، والفاكهات والخضار، وغيرها من السلع الاستهلاكية كما عمل بعضهن في تجارة الرثاث.

عندما كان عدد النساء في الرابطة الحرافية يتساوى عدد الرجال فيها، كانت النساء يحظين بشكل عام بحقوق مماثلة لحقوق الرجال.

وقد انتشر عمل النساء في المهن الحرافية إلى حد بات من الضروري معه في نهاية المطاف إخضاعه لتنظيم قانوني. صانعوا السجاد على سبيل المثال جرّموا العمل على النساء الحوامل، حفاظاً على صحتهن من جهة، وللحد من منافسة العمل النسوي للعمل النسوري من جهة أخرى. ومع تفاقم المنافسة بين الحرفيين في القرنين الخامس عشر وال السادس عشر، بدأ أبواب الروابط الحرافية توصّل في وجه النساء. يد أن عمل النساء لعب دوراً هاماً في العدن في مرحلة انتشار الحرافية. وللن عرف العمل النسوي ذلك الرواج، فأثن البرجوازية في العصر الوسيط كانت تتألف من غالبية نسوية. فإحصاءات العدن الكبيرة، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، تشير إلى وجود 1200 إلى 1250 مواطن نسوان مقابل 1000 مواطن. وكانت هذه النسبة ترتفع إلى أكثر من ذلك في بعض الأحيان. وكان غياب الرجال يلزم النساء بالعمل لتؤمن معيشتهن.

هذه الزيادة في نسبة النساء مرتداً إلى التزف الكبير في الذكور الذي أحذته الحروب المتلاحقة. فقد قضت هذه الحروب على أحداد هائلة من الكائنات البشرية طبعاً من الرجال. وقد حصلت من جهة أخرى هجرة نسوية كثيفة من الريف إلى المدينة، هرباً من استبداد مالك الأرض الكبير. فقد كان على ابنة الفلاح أن يبحث عن عمل لها في المدينة لتخالص من عبودية القائمة في حين كان خالص ابن الفلاح يمكن في توطنه في الجنوب وفي الذهاب إلى الغرب.

بالنسبة إلى المرأة إذن كان هناك مهربان فقط: الدبر أو المدينة.

ذهب النساء إلى المدينة إذن سعياً وراء العمل الذي يؤمن معيشتهن، ويعيشن أولادهن أيضاً في معظم الأحيان. وعندما كان يفضلن في تعلم العمل الكريم كن يلجن إلى المتاجرة ببعضهن. وقد عرفت هذه الوسيلة في كتب العيش رواجاً عظيمـاً حتى أن العاهرات ذهبن في العيد من العدن إلى تلبيس روابطهن الحرافية الخاصة بينهن. وقد أضفت وجهاء العدن طبع الشرعية على تلك الروابط وراحت العاهرات يطرعن بلا رحمة كل امرأة تحاول المتاجرة ببعضها خارج التنظيمات الرسمية. لذلك كان من الصعب جداً على أي امرأة أن تعيش من الأعارة خارج البيوت الخاصة بينات المهرى، أي خارج المواريث.

كانت العاملة الحرافية، من جراء مساهمتها في الإنتاج، تعيش حياة مختلفة تماماً عن حياة معاصراتها من فلاحات وأسرقراطيات. كان يحق لها أن تقول كلماتها في القرارات المتعلقة بسياسة المدينة الإنتاجية، كما كانت تشرف على إدارة أرباحها الخاصة وتشترك على نحو فعل في الاعتقالات وفي حلقات السكر العدية آنذاك. لقد كانت مستقلة وحرة بكل تأكيد. حتى في روسيا، التي ظلت تعيق زمـن العصر الوسيط في القرن السادس عشر، فإن وضع المرأة في المدينة كان أفضل بكثير من وضع المرأة الأرستقراطية، ولاسيما في العدن الحرة كبسكت ونوفوغرورود وغيرهما. وآخر دليل نسقه على ذلك أن عددة نوفغورود - الكبرى كانت أفرقة، وكانت تدعى مارتـا بولـاتـينـ، وقد ناضلت بلا هوادة من أجل حرية مدينتها، وكافتـتـ أعمالـ النـهبـ والتـغيرـ التيـ كانـ يـقـمـ عليهاـ البـلـاءـ. وهذاـ ماـ يـوـكـدـ لـناـ مـارـسـةـ النـسـاءـ لـلـسـيـاسـةـ، وـتـقـلـيـلـ الـبـرـجـواـزـيـنـ لـهـنـهـ المـارـسـةـ.

لكن لا يجوز مع ذلك أن نبالغ في تغيير أهمية دور المرأة في اقتصاد العدن، وفي نظام إنتاج العصر ب بصورة عامة. فلن أفلح عدد كبير من النساء في تعلم سبل عيشـهـ بواسطة العمل المستقل، فإن غالبية النساء بالمقابل ظلت تعاني الاختطافـاـ. وتعيشـ منـ وراءـ عملـ الزوجـ الذيـ كانتـ تعـنيـ بشـؤـونـ بيـتهـ. وكانتـ هـؤـلـاءـ النـسـوةـ يـقـمـنـ عملـاـ ثـانـويـاـ الأـهـمـيـةـ فيـ منـظـرـ الـاقـصـادـ لـذـاكـ كانـ منـ الطـبـيعـيـ لاـ تـسلـويـ تـعلـماـ حقوقـ الصـاعـدـاتـ الـحرـفـيـاتـ وـالـنسـاءـ الـأـعـنـاءـ فـيـ الـإـعـدـادـ الـحرـفـيـاتـ معـ حقـوقـ أـزـاجـينـ وـأـشـقـائـينـ. فـلـمـ يـكـنـ فـيـ وـسـعـ النساءـ العـالـمـاتـ أنـ يـطـالـبـنـ بـعـساـواـةـ مـطـلـقـةـ فـيـ الـحـقـوقـ ماـ دـافـعـتـ غالـلـيـةـ النـسـاءـ -ـ أوـ الجـزـءـ الـأـعـظـمـ مـنـهـنـ عـلـىـ الـأـقـلـ -ـ عـاجـزـةـ عـنـ إـنـتـاجـ الـبـضـاعـ وـعـنـ تـكـلـيـةـ دـورـ يـعودـ بـالـفـلـذـ عـلـىـ الـعـجـمـ بـرـهـتـهـ. فـلـلـرـجـلـ، فـيـ الـعـطـافـ الـأـخـرـ، كانـ وـبـقـيـ الـمـنـتـجـ الـأـسـلـيـ، وـخـالـقـ سـلـاـئـرـ الـثـرـوـاتـ وـالـمـتـجـاتـ، وـلـلـكـ يـغـضـنـ النـظـرـ عـنـ وـضـعـهـ. وـلـهـذـاـ السـبـبـ بـقـيـتـ الـمـرـأـةـ مـجـرـةـ فـيـ الـعـجـمـ وـالـرـوـلـ، وـظـلـتـ بـعـيـتـهاـ دـاخـلـ الـزـوـاجـ وـالـأـسـرـةـ عـلـىـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ فـيـ الـمـاضـيـ دـونـ أـنـ يـطـرـأـ عـلـيـهـ أـيـ تـغـيـرـ إـيجـابـيـ.

يعيل المؤرخون البرجوازيون عادة إلى اعتبار العصر الوسيط عصرًا مباركاً، تميزت فيه حياة الأسرة لسكان العدن بالسعادة والبهجة، وتحمّلت فيه بنت المدينة باستقلال وتقدير مغولين. فحتى النساء العاملات كن هنّو بوضع تعلق الرجال وماهتهم. بل أن العصر الوسيط برمهة يبدو، ببراعة هؤلاء المؤرخين، وكأنه محاط بهالة من الرومنسية. غير أننا نعلم أن الواقع كان مختلفاً تماماً. نعرف قسوة ذلك العصر وهمجيته. فقد كانت النساء، على الرغم من قيام مراقبين الاجتماعية، يعيشن في غالبيتهن شروطًا صعبة، ويجدن أنفسهن معرضات لكل ما يمكن تصوره من الآلام وعذابات نتيجة ظلامية ذلك العصر. ألم تنتشر ينتشر خالله الرأي العظال القائل أن المرأة هي «أداة الشيطان»؟ وقد نشرت المسيحية فكرة «إمامة الجسد» وأدخلت عادة الصلاة والتوجه حتى الإتهام، وتحسّنت باللغة والصوم. ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية تطالب كهنتها ورباتها فحسب بالعزوبة والقتل، بل كانت أيضًا تدعو الناس عامة إلى إمامة الجسد. فالزواج كان ينظر إليه على أنه تعبير عن غلبة الجسد. وللن جعلت الكنيسة من الزواج سراً من أمرارها، المققس، فقد ظلت رغم ذلك ترى في العلاقات الجنسية بين الزوجين نوعاً من الاستسلام للخطيئة. وفي مجمع ملكون الدين (ملكون أحذى من فرنسا) الذي اعقد في القرن التاسع، صدرت قوصية أطلق عليها بوجهاً لـ«إمامة الجسد». ويمكن أن نتصور بعدها بعثة المبشرة النتائج التي ترتقت على تصورات كهذه بالنسبة إلى جسد المرأة وحاجاتها الإنسانية.

إن سائر البيانات الموسومة بعض النظم الأبوية قد أحيّفت بحق النساء، ولا سيما عندما أُنزلت نوافذ المرأة بالقياس إلى الرجل منزلة القانون الديهي والمسيحية، التي كانت في البداية دين العبيد، والتي استُخلصت بسرعة مع الأدب من قبل الأعيان وأصحاب الشأن العظيم. هذه المسيحية غبت المرأة من وجهة النظر هذه علينا شيئاً فشيئاً. فالكنيسة حين بانتشارها الهائل في العصر الوسيط لم يلتفت لها إلى إضفاء طباع الشرعية على الملكية الخاصة، وعلى الهرة الفاضلة بين الطبقات. وعلى استعمال العنف إزاء القراء، لقد جعلت المسيحية من الرداعة والصبر فضليتين كان على الآثاقن، الذين لا حقوق لهم، أن يتّحولوا بهما كما يحصلوا على الجزاء والمكافأة في الآخرة. وكان تخدير الدين للذكر والإرادة يتحول دون حصول أي بقية: «أمن ولا دفع الشك يتعريكا». فطبقية كبار ملوك الأرض كانت تحتاج إلى دعم الإله نفسه كي تضمن هيمنتها وقوتها. وكانت «إمامة» أمراً مكرراً ولا ريب. فcri قرر هل كان الفرسان والملائكة العظيمون أو حتى ممثلو الكنيسة المحتسبون يحترمون هذه القرائن الحياتية المعقّدة؟ كان، ولا بالي شك من الأشكال! لقد كانوا يعيشون حياة فحور تبعث على التقرّز، ويتركون للرهان والنساك مهمة «أشارة أجسادهم». لكنهم كانوا ينظرون إليهم على الكنيسة كي تغفر لهم خطاياهم.

لقد كانت المسيحية إذن، من سائر جوانبها، بيئة مناسبة لأصحاب الشأن والأقواء في هذه الأرض، وذلك ما دامت تكرس اضطهاد الطبقات المحكمة وغير الملكة، ولا سيما النساء المنتسبات إلى هذه الطبقات؛ وتسهم في إرهاب أفرادها... ولقد اهتمت المسيحية المرأة بتحريض الرجل علىحب الجندي، وعدد أيام الكنيسة في العصر الوسيط إلى تغيير كعوبات خالية من الصفات في محاولة منهم لإثبات الطبيعة الخاطئة والآثمة للمرأة. وقد حفلوا النساء مسؤولة شويتهم وغلتهم هنّ؛ وكان الشعب السلاج، والغريم الثقافة، وغير المتعود على أن يفكّر بنفسه، يغضّن تعاليم الكنيسة ثقة عمياً.

يد أن فساد الأخلاق لم يتراجع قيد أهلة من جراء تلك التعليم. ففي العصر الوسيط ازدهرت الاعمار وانتشرت؛ ولو لدقائق في عادات ذلك العصر لوجتنا أنه لم يكن يقل فجوراً عن عصرنا الرأسمالي البرجوازي. فمع ظهور «الأخلاق الغزووجة»، التي أُلقت بكلام وزنها على المرأة، تفاقمت أجراء التزّمت والرباه بالطريق. فمن الكنيسة إلى رجال الشارع، حق للجميع التدخل في الشؤون الزوجية، فكان أن ظهرت عادة اصطدام الأمهات العازبات ومطارنتين. وكثيراً ما كانت هؤلاء الآخرين يلجان إلى وضع حد لحياتهن أو لحياة طفلهن. لكن مع ذلك تبقى محاكمات الساهرات - بالمقارنة - أبغض جرمية مورست منحة البيلة المسيحية.

لقد كانت المسيحية تؤيد كمال الفكر والتزّعة المحافظة، ولا تقبل أي تجديد، وتعتبر سائر أشكال العمل التكريبي نحسناً وشّاماً. فقد كانت العلوم مثلاً محاربة من طرف الكنيسة التي كانت تتّخذه من قبرة العلماء على فضح الشعوذة الدينية وعلى إزالة الفتّاحة على أعين المؤمنين. لذلك، فإن كل من كان يمارس تصرّفاً فكريّاً على موطنه، من دون أن يكون من لاسي العبة، كان يعترض لملائكة الكنيسة وفضلياتها.

لكن النساء، «أ أدوات الشيطان» تلك، كن في أكثر من ميدان أكثر تفافاً من الرجال. فالناس من كان متّخذاً كلّياً بحروبه، وبغيراته، وبفجوره، كان يقم على أبغض الأفعال وأفجعها، لكنه لم يكن يستخدم عقله. كان يترك للآخرين مهمة التفكير مكانه. وإنما ما وقع في الخطيبة نسب إلى الكاهن في كرسى الاعتراض. ولم يكن هذا الأخير ليدخل عليه بالغفران. غير أن الأمر كانت تختلف بالنسبة إلى النساء المفترضات من أمر نبيلة. فتقاقيهن العالية نسبياً، والمسؤوليات التي كن يتحملنها في إدارة الاقتصاد الإقطاعي، نعمت فتراتهن على التفكير وجعلتهن أرفع مستوى بالذكر من أزواجهن. وهذا ما كان يدعى الكاهن المعرف إلى المزيد من التبيّظ والتقبّل معين. فقد كان يسعى بأيّ شفّع وراء احتواء الكلّارهن وإبراهيم. فإن تعذر عليه ذلك، تشتبّه صراع لا هوانة فيه بين المعرف وزوجة القارس. ويا ولها إذا ما أخذ زوجها القارس برأيها الحكمة بدلاً من أن يصفع إلى نصالح الكاهن أو الراهب السيدة. فلكنيسة لم تكون تغفر انتصاراً كهذا للمرأة. وكانت تلاحقها، وتنظر في طرف العذائب لتُدفع بها إلى الهلاك. ولعمري لم يكن ذلك بالأمر الصعب على «المسيحيي الصالح»، فالمرأة ما هي في كل الأحوال إلا «أداة للشيطان» و«مصدر إغراء». فحتى الصفات الحميدة للمرأة كانت في نظر الكاهن أو الراهب أسلحة موجهة ضدها. فإذا ما نجحت فلاحة مثلاً في شفاء جارتها من مرض ألم بها، اعتبرتها الكنيسة منافية لها بسبب قدرتها على ممارسة تأثير نفسى على محيطها. وكانت تسارع إلى إثارة جو من الريبة من حولها: فقد كان عملها من «صن الشيطان» أو من صنع «السر» بكل بساطة. وكلما كانت المرأة أكثر نكاء وتفافاً ازدادت مخاطر اتهامها بممارسة السحر من

قل رجال الكهنوت، وقد أخرجت الكنيسة، طول قرون، سلسلة من المحاكمات للساحرات جرى خلالها اضطهاد نساء وقتلن على نحو مريع. فيين القرنين الخامس عشر والسابع عشر صنعت الآلات من الساحرات المزعومات إلى المحرقة. وخلال عام واحد فقط أُحرق ما يقارب من سبعين «ساحرة» في مدينة فرنسا<sup>15</sup> وحدها، وفي المنطقة المحيطة ببجربة كرم في شمال إيطاليا، حكم ما يقارب من مئة امرأة بتهمة «الاتصال مع الشيطان». وثمة كتاب عنوانه مطرقة الساحرة كان يعطي وفراً من المعلومات الدقيقة للتعرف إلى الساحرة ولتجنب أن تسرّها، الواقع أن عدداً كبيراً من ضحايا هذا «الورع» المسيحي انتهى تحت التعذيب وأمعن فين بغير عصبية غريبة هي طبعاً من نوع الخيال. ذلك من أكثـر مثلاً أنها قد شاركت في «عيد الساحرات» فوق قمة الجبل الآخر، وبتها قد وقعت على صك مع الشيطان، وتحولت إلى حيوان، ورمـت الرجال بالسحر، وجـلت لهم الغم والعرض، الخ.

وكان الناس العالمون، الأميون والمقدعون، يصدرون كل هذه «الخطاباً»، وكان في ذلك ما يخدم مصلحة رجال الدين. لكن ما يهمنا معرفة تحن هو أن النساء في ذلك العصر لم يكن خلوات الكنيسة وبناتها المتصاعدات، والإلهامات الطوول المحذوة على ذلك القبر من الحق والغيط تجاهن أثناء محكمات الساحرات العديدة ولم يحر ترويض المرأة نهاية إلا مع الأيام، عندما فكت طاقتها الفكرية والعلمية. إن مطاردة النساء بحجة السحر والشعودة بدأت في منتصف العصر الوسيط وقد بلت سيرورة هذه العطارة بعد انطلاقها وكأنها غير قابلة للتوقف. فقد استمرت طيلة قرون، حتى بعده أن عادت المرأة من جديد أميرة طلابها وأداة في خدمة زوجها.

سوف نلخص محاضرتنا اليوم على النحو الآتي: من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر، أي في عصر الإقطاع والاقتراض الطبيعي، وجدت المرأة نفسها، على الرغم من خضوعها وتجزدها من الحقوق، في وضع أفضل بكثير من ذاك الذي أصبح من نصيبها في العصر التالي، الذي يشتهر بالاستغلال الرأسمالي وتعزيز بازدهار التجارة، والرأسمال، والصناعة اليدوية.

والمرأة الاستوغرافية، المسؤولة عن تنظيم ثروتون القصر، كانت تتعمق بعده من الامتيازات الناجمة عن ثروتها، والتي كانت تمنحها توغاً من السلطة على بقية طبقات المجتمع لكتها في علاقتها مع زوجها كانت تجد نفسها مجردة من سافر الحقائق، وخاصة له حسب القانون. فلم تكن ثمة مساواة بين الجنسين. أما الصناعة الحرافية، التي كانت تتعمق بعض الحقوق في إطار اختصاصها كممثلة عن هيئة منتجة، فقد كانت هي الأخرى تجد نفسها مجردة من سافر الحقوق داخل أمرتها حيث كانت سلطة رب البيت على الزوجة والأولاد لا تعرف قياداً أو شرطاً. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الأسرة الفلاحية. صحيح أن الفلاح كان، من الزاوية النظرية والهرمية، وهو باب الحنن إلى الماضي، يذكر زوجته وبعتبرها المحافظة على العشيرة والمعتง الأساسي في الاقتصاد؛ لكنه على الصعيد العملي كان يعاملها وكأنها خائفة أو عدته. هكذا كانت تعيش المرأة في ظل النظام الإقطاعي.

## **المحاضرة الخامسة: وضع المرأة في عصر ازدهار الرأسمال التجاري والصناعة اليدوية**

ستنتقل أيتها الرفيقات اليوم إلى تحليل وضع المرأة في مرحلة ولادة الرأسماлиة. وكما، في المحاضرة الأخيرة، قد عالجنا النظام الإقطاعي، ونظام القاتنة، والتطور الضييف للتجارة البلاطية، وازدهار الصناعة الحرفة في المدن. وقد ثبّت لنا كيّف انه في ذلك العصر كثما في العصور السابقة للتطور الاقتصادي. ازبقيت حقوق المرأة ومكانتها في المجتمع بالموقع الذي احتلته على صعيد الإنتاج. ففي عصر الإقطاع والاقتصاد الطبيعي شاركت معظم النساء في الإنتاج لكن الاقتصاد العائلي الفردي والخاص نسبياً النساء عن العمل المنتج الذي تعود قائلته على المجتمع بسلبية، وحصرهن في إطار العمل المنتج الذي لا تستفيد منه إلا الأسرة. ومع أن المرأة كانت تبذل طاقة كبيرة في نشاطها المنزلي وتؤدي عملها جيداً من هنالك، فإن عملها هذا لم يكن معترفاً به على صعيد الاقتصاد القومي لأنها لم تكن قادرة على تبليغ إنتاجها.

ولقد لاحظنا أن وضع المرأة في المجتمع الوسيط كان يختلف بالاختلاف انتقالها الطيفي، وكان مجتمع ذلك العصر يتكون من الطبقات التالية: طبقة البلاط، وطبقة البرجوازية (طبقة سكان المدن) وطبقة الفلاحين والأقنان. الفلاحية المنتسبة إلى طبقة الأقنان كانت مسلوبة من سائر حقوقها، لسوء بالفلاح القن وللأسباب عينها. فالمرأة والرجل هنا كانوا مستعينين ومعرضين من الحقوق. كان الفلاح في ألمانيا مثلاً يحترم زوجته بصورة ما، نظراً لحفظ التقاليد الشعبية على عناصر من وظيفتها السابقة في الاقتصاد الطبيعي. بالمقابل، فإن المرأة لدى القبائل البدوية في العصور القديمة كانت مجرد أمّة وخادمة لزوجها (لقد تأثرت الطبقة الفلاحية الروسية عميق التأثير بعادات البني وتقاليدهم).

ومع ظهور الملكة الخاصة والأسرة توغلت النظم الأبوية لدى الطبقة الفلاحية أيضاً، وحصر نشاط المرأة من جديد في إطار العمل المنزلي الضيق. وقد شاركت قلة من النساء البرجوازيات في الإنتاج، لكنهن ما كن يعثن بالخالية لا من قريب ولا من بعيد. أما الصناعة الحرفة الحرة فكانت، بصفتها عضواً في رابطة مهنية، تتبع بعض الحقوق، وذلك بمقدار ما كان إنتاجها يساهم في زيادة ازدهار المدينة.

بعد أنها، داخل الأسرة، ظلت تخضع لسلطة زوجها أو والدها الذي يبقى عملاً الأسرة كما في الماضي. وفي طبقة البلاط وكبار المالكين العقاريين، كانت المرأة تعيش تحت سيطرة زوجها؛ لكنها كانت تتم مع ذلك بقدر من الاحترام والتقدير لأنها كانت مسؤولة عن تنظيم الاقتصاد المنزلي الإقطاعي. ييد أنه في عصر الإقطاع على وجه التحديد تراجع الاقتصاد الطبيعي لصالح الاقتصاد البلاطي، كما تطورت ونمط الصناعات الحرفة. وقد فرض المال نفسه عدالة كوشيلة شامل، وتضاعفت بسرعة عدد العدم الذين كانوا ينجزون الأعمال مقابل أجور. وقد أدى ذلك إلى الانقسام من دور المرأة كمسؤولة عن تنظيم الاقتصاد. فلم يعد ثمة ضرورة لتخزين المؤن لمدة سنوات أو لحرافقة الإنتاج المنزلي داخل القصر ما دامت معظم الحاجات يلتقي بجولة من البعض في المدينة التجارية أو الحرفة المجلورة. التصور الممحضنة، التي كانت بين القرنين التابع والثاني عشر وحدات اقتصادية مملوكة خاضعة لإشراف سيدة القصر، تحولت إلى أوكيار لقطع الطريق. فالفرسان ما عانوا بسعون إلا وراء زيارة أربالهم إلى أي حد ممكن، وذلك لتزويد قصورهم ودورتهم بشتي مظاهر البذخ والترف. ولم يتوانوا، في سعيهم وراء ذلك، عن مص لقاء الفلاحين حتى القطرة الأخيرة وعن فرض الضرائب الباهضة على بورجوازية المدن. وجاء يوم ثورت فيه النساء الأستراليات من شتى أشكال العمل، بما في ذلك عملهن المنزلي الخاص. وقد تخلين عن إدارة بيوتهن لافتئان والخدم. وأصبحت مهمتهن الأولى والأخيرة «التغريغ»، أي إنجاب الأطفال.

بعد أن بلغ الشكل الاقتصادي الإقطاعي ذروته، تحول إلى عائق بالنسبة إلى التطور اللاحق لقوى الإنتاج. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى عمل الأقنان. فالنظام الاقتصادي الجديد الذي كان قد ولدته يسعى وراء تحقيق أعلى حد من الربح من عمليات التجارة والعملية. وبمقتضى قوانين التطور الاقتصادي المحترمة أضحي النظام القائم بذلك، وحكم عليه بالزال ليحل مكانه نظام جديد قائم على تجارة البلاط، النظام الرأسمالي.

استيعبن صبراً قبل أن تنتقل إلى تحليل وضع المرأة في النظام الرأسمالي لاد أن نوضح أن الرأسمالي لم تظهر فجأة بكامل قوتها، أي كما نعرفها اليوم. لقد مررت طبعاً بعد من المراحل خلال تطورها. بدأت بضرورة تحرير الرأسمال إن في التجارة وإن في الصناعة اليدوية وفي نهاية القرن الثامن عشر تطورت الصناعة اليدوية بالتدرج إلى أن أخذت شكل المصانع أو المنشآت الصناعية. عانت تطلب الرأسمال الصناعي على الرأسمال التجاري وأصبح العنصر الطاغي أكثر فتكاً على الاقتصاد. وكانت مرحلة منافية شرعة خاص خاللها صغار المنتجين وكبارهم صراغاً لا هوانة فيه. وقد حطم الرأسمال الكبير صغار المنتجين بلا رحمة، وأغرق سوق العمل بالاستهثار بفالنس من اليد العاملة. وفي القرن التابع عشر انفتحت المصانع وانحدرت لتشكل التروسات التي فرضت نفسها بالتوالي مع انتصار الإنتاج الكبير. من جهة أخرى، فإن ثمة قوة كانت لا تزال مجبرة حتى الآن ظهرت في النظام الاقتصادي الرأسمالي، أعني الرأسمال العلي.

لقد دفع فائض إنتاج الدول الأكثر نمواً، والبحث عن أسواق جديدة للرأسمال المترافق، نحو بالدول الرأسمالية إلى انتهاج سياسة غزو استعماري. وهذا تخت على النظام الرأسمالي، الذي بلغ ذروته، التراجع والانهيار، نظراً لضرورة الاستمرار في زيادة القوى الإنتاجية التي يقتضيها التطور الاقتصادي. والحال أن النظام الرأسمالي يحول دون انتشار هذه التقوى ولا يدع من مجال أمام تفتح الطاقات المنتجة الأساسية وشدة مخرج واحد فقط لهذا الوضع: قيام نظام اقتصادي أكثر تطوراً بعد، يسع بفتح النشاط الاقتصادي الخالق للطقة الكلاوية، وينمو كأمثل طاقات عملها الكامنة، أعني قيام نظام إشتراكي. ولأن تعمدت الابتعاد قليلاً عن موضوعنا الأساسي، فلأكي أعطيك فكرة شاملة وإن بدائية عن تاريخ التطور الرأسمالي.

لكن لنعد الآن إلى بداية سيرورة التطور هذه، إلى مرحلة ولادة الرأسمالية التجارية حيث تقام الصراع بين الإقطاعية وبين الرأسمالية التي حكمت بالرزاقي على الاقتصاد الطبيعي. في بعض الأقطار، كإيطاليا مثلاً، استعملت هذه السيرورة مراحلها في مطلع القرن الثاني عشر. وفي أقطار أخرى، كفرنسا وإنكلترا، لم تطلق هذه السيرورة قبل القرن الرابع عشر، وقد استمرت في إنجلترا طوال القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر، أمّا في روسيا فإن هذا التطور لم يبدأ إلا في مطلع القرن الثامن عشر واستمر حتى القرن التاسع عشر. وفي آسيا لا تزال هذه السيرورة جارية المفعول، ونستطيع أن نعيد هنا التفاؤل في التطور الرأسمالي لمختلف الأقطار إلى جملة من الظروف التي غالباً ما تكون في الواقع من صنع المصانفة والطور الأول من النمو الرأسمالي حصل في كل مكان تقريباً على شكل واحد. ولما كان هذا الطور نكهة الخاص والخاص على مصر الأجيال اللاحقة من النساء، فقد رأينا التوفيق عنده مطولاً وخاصة باهتمام معين.

ما الذي ميز النظام الرأسمالي؟ وبمِ اختلف عن المراحل السابقة للتطور الاقتصادي؟ إن النظام الرأسمالي ما كان يعتمد على عمل الفلاحين الأفارقة، وإنما على عمل الأجراء الأحرار. وفي ظل الاقتصاد الطبيعي، حيث كانت التجارة البقالية ضعيفة الشأن والنفوذ، كان الانتاج مرجحاً نحو تلبية الحاجات الحيوانية لا نحو البيع. وفي الانتاج الحرفي، كان الصناع الحرفى ي العمل بناء على الطلب وتلبية عدد محظوظ من الأسواق. لم يكن يبيع قوة عمله، وإنما تمازج هذا العمل. أمّا في ظل تضخم الانتاج الرأسمالي فقد بات الأجير يبيع الرأس المال قوته عمله. وفي العصر الذهبي للصناعة الحرافية، لم يكن المعلم يعبر زيادة الإنتاجية أهمية تذكر. فالأسعار كانت تحدّد من قبل الروابط المهنية، والطلب على إنتاجه يتوفّر من دون أن يشغل به به. وهكذا لم تسجل القوى الإنتاجية إلا زيادة بطيئة للغاية. أمّا في ظل النظام الرأسمالي، فإن المقاول، أو الوسيط يسعين بدأب وراء المزيد من الربح، وهذا يعني التركيز على فتح أسواق جديدة وعلى زيادة الإنتاجية في آن واحد. وقد تم تحقيق الهدف الأخير عن طريق استغلال أكبر للعمل، وأيضاً عن طريق إدخال أشكال جديدة من العمل - منها نظام الصناعة اليدوية والتطور التقني. وبينما من المعلوم، في ظل نظام الطوائف المهنية، يسعون بشتى الوسائل الممكنة للحد من عدد صناعتهم، وذلك خوفاً من المنافسة، سعي الرأسماليون بالمقابل وراء الاستفادة من أكبر عدد ممكن من الشغيلة. وقد قام بهم تمار على قوى العمل الرئيسية، مما أتاح القرصنة لإشراك النساء في الإنتاج.

إن مرحلة الرأسمالية الأولى، التي امتدت بين القرن الرابع عشر وبين السابع عشر حسب الأقطار، تميزت بقصورها الناقصة بالنسبة إلى الذين لم يحالفهم حظ الانتفاء إلى الطبقات العاملة. كان عصراً أسوداً مضطرباً، غني بالمعاناة بالنسبة إلى البشر، عصراً انتهت فيه الحروب الأهلية الدائرة رحاهما بين الإستوغرافية العنجهة والبرجوازية الصاعدة بتحطيم نظام الإنتاج السلفي. ولادة هذا النظام الاقتصادي الجديد لم يحصل من دون أضرار وخسائر. فقد حولت هذه وقري برمتها إلى رملاء. وتضاعفت عدد القراء، والمشردين، والذاهلين بلا مأوى على نحو متفرّق للائق. وخلال فترة قصيرة نسبياً، عجت سوق العمل بالنساء وخدمن. فنساء الحرفين الذين بارت صناعتهم، ونساء الفلاحين الراغبات في التخلص من أعباء السالة التقيلة، وأرامل الحروب الأهلية والقرمية المتلاজحة، بالإضافة إلى أرطال البقيعات والنساء الجياع، اجتمعن العدن والتجلّن إليها زرافات. وقد سقط معظمهن في الدعاارة، في حين عرض بعضهن عمله على مطهي العرق بعناد وثبات ونذر ما تلقاها في أيامها. وما أن وفقن في الحصول على عمل حتى جاهدن من أجل تلاعيم موقنن. كن في أغلب الأحيان من الأرامل أو من بنات الأرامل، وقد عذلن العزم على تخدير مهاراتهن في العمل أو مكرهن ودهنهن للحقور على زوج مناسب في الورشة. وقد بلغت هجمة قوى العمل الرئيسية هذا في القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر اضطررت معه الروابط المهنية إلى فرض قوانين وقيود على اقتحام النساء ميدان الصناعة الحرافية بغية الحد من منافسيهن الشديد. وقد استطاعت بعض الروابط المهنية إيقاع المعلمين بضررورة العدول عن قبول النساء صناعات حرفيات، كما حظر على النساء العمل في بعض المهن. ففي فرنسا على سبيل المثال صدر قانون في عام 1640 حرم بعرجيه على النساء صنع الدانتيلا بالمخزي، علماً بأن هذه المهنة هي من المهن النسوية التقليدية والمعزولة.

وقد اضطررت النساء، تحت وطأة الجوع، والقر، وغياب العملية الفلاحية، إلى الرضوخ للتشريعات العرجية ضدهن. فترجعن إلى المهن التي لم تكون محصورة بالرجال وحدهم؛ وبما أن فرض نجاحين كانت ضعيفة ومحبطة فقد راودهن الشك بصدق قيمة قوة عملهن الخاصة. وهذا ما أدى إلى تفاقم شروطهن الحياتية. فلا عجب إن كان عند الأئمة قد تضاعفت على نحو غير ملحوظ، بدءاً من نهاية القرن الثالث عشر. فقد كان النير هو المفروى الأمين للقوروبيات أو لنساء العدن الروحيات اللواتي لا حول لهن ولا قوّة. فالنير كان يؤمن لهن العملية من الفقر ومن حتف الطبقات السالفة. يد أن النساء الإستوغرافيات كن يخترن حياة النير لأسباب أخرى، للغرب من استبداد أزواجهن أو أبيائهم. وفي العصر الوسيط الذي فتح ملاجي للنساء الوحيدة أطلق عليها اسم بيت المترهات. وكانت هذه البيوت

تقول بشكل عام بيهات المحسن الأغبياء الراغبين في التكfer عن خططياتهم وفي أثيرة النساء عاملات، تحكم بين عقلية متنبنة صارمة، وكانت تزيالت هذه البيوت يغضن حياة زهاد وتفسف، ويتعهدن بتالية سائر الأعمل التي يوكل بها البعض. كن يرتبون لباسا خاصا ويضعن على رأسهن متبللاً أبيض، يعرف باسم طافية المترفة، وذلك كي يتميزن عن بقية نساء المدينة. كن يقعن سائر العهان التي يطلبن بها المرجوذون، من عيلة المرضي، إلى الخياطة، إلى الغزل، الخ وقد ازدلت بيوت المترفات بين القرن الثالث عشر ومطلع القرن الخامس عشر، ثم اختفت وزالت بالتدريج. وهرد هجرانها إلى ظهور ورشات المصانع اليدوية التي راحت تستقطب النساء الوحدات.

لقد عدَ القرن الخامس عشر والستين عشر باسم «عصر النهضة» الشهير. والأصح في نظرنا هو اسم «مرحلة تكون الرأسمالية». فقد أضحي الاقتصاد الطبيعي والإكتفاء الذاتي ملما للماضي. وباتت القوى الإنتاجية تطالب بنظام اقتصادي جيد لتضمن استمرار تفخها وازدهارها. الرأسمال التجاري الوليد كان يبحث عن وسائل جديدة لزيادة أرباحه. وحل مكان المالك الإقطاعي الكبير، الذي كان يقود أفقه بالهراوة، القبول الوسيط الذي راح يشتري قوة عمل الفقراء، هرغما البروليتاريا المتعافية باطراد على أن تملأ جيوبه بالأموال. وكانت النساء، اللاتي لا حول لهن ولا سند، الضحايا الأولى لطبقة المقاولين الجشعين هذه. وقد ظهر في ذلك الحين، إلى جانب الإنتاج الحرفي الخاضع لإشراف الطوائف المهنية، فرع اقتصادي جديد: «العمل في البيت». وقد انتشر هذا الضرب من العمل في سائر الأقطار الأوروبية تقريباً بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر.

كان العمل في البيت يمثل شكلاً وسيطاً بين الصناعة الحرفة وبين العمل المليوجر. كان يختلف عن العمل الحرفي من حيث أن هذا الأخير لم يكن يحتاج إلى وسيط بين المنتج وبين المشتري. في العمل في المنزل بالمقابل كان المنتج يوزع إنتاجه بواسطة مشترٍ يختار سوقاً محددة. لقد تخلَّ العامل في البيت إذن عن جزءٍ محددٍ من أرباحه لصالح الوسيط. فكان عليه أن يزيد من مردوده باستمرار كي يؤمن ثلبة لائقة لحاجاته. الأمر الذي أدى إلى زيادة في الإنتاج بشكل عام وأيضاً إلى إيجاد ضرب جديد من الاستعمال.

\* \* \*

مع تزايد عدد العاملين في بيوتهم، والذين كانوا يجدون أنفسهم مضطرين إلى الإنتاج أكثر فكراً لتأمين معيشتهم، أضحي من الضروري مطالبة المشتري الوسيط لا لتأمين بيع ذلك الإنتاج وتصريفه فحسب، وإنما أيضاً بتأمين المواد الأولية الضرورية للعمل. فكان الانتقال من العمل على القطعة إلى العمل المليوجر.

بين القرنين العلويين عشر والرابع عشر انتشرت في العدن الإيطالية الكبرى، إلى جانب العمل الحرفي الأول، سلسلة من الصناعات المنزلية. ونخص من بينها بالذكر صناعة التسريح، والغزل، وتطريز الأقمشة الحريرية وغيرها من الأعمال النسائية التقليدية. وفي المنطقة الفلاحية من هولندا وفي إنكلترا، رأت النور في القرنين الخامس عشر والستين عشر صناعة الألبسة والأقمشة. وكان الإنتاج بإشراف متعهدن يتعاقبون مع عمل يعلمون في بيوتهم. لم تشارك في هذا الإنتاج النساء القبريات والمعدمات فحسب. فقد رأت الفلاحة أيضاً في العمل المنزلي فرصة للشغل من دون الاختصار إلى مغادر دارها أو أسرتها. وقد تحول العمل المنزلي، في عصر تامت فيه باطراد متطلبات ملك الأرضي الكبيرة، إلى دخل اقتصادي هام بالنسبة إلى الكائنين في الأزديقات. لكن مع تزايد عدد الرجال المشاركون في الإنتاج، اشتقت قصبة أساليب استئثار المتعهدن وتقام شرط القراء والمعدمين. وكان وضع النساء يدعو إلى الرثاء حقاً، فقد كان المتعهدون والمقاولون والفنانين تعلماً من قدرتهم على التحكم ببيؤاء المسكنات وعلى فرض معيشتهم عليهم. كانوا يستطيعون مثلاً أن يهدوا الفلاحة الهرارية من ربها بسلعيها إلى سيدها، وإن يتميزوا العصرية المترفة بالغير والتفرد، الأمر الذي كان يعزّزها المقويات شديدة ومخيبة. لهذا السبب رضخت العاملات في البيوت، ومن بعدهن أحيرات المصانع اليدوية، لشروط مصاصن النساء ذلك الذي يسمى بالواسطط.

لأن خضعت المرأة، في عصر الصناعة الحرافية الذهبي، لوصية زوجها ولم تتمتع بأي حقوق داخل أسرتها، فإنها بالمقابل، بصفتها عضواً ومنتجة في الروابط الحرافية، كانت تحظى بالاحترام الجميع وتغييرهم. وقد فتحت العاملة المنزليَّة هذا الامتياز. فعلمتها المنفك - كانت تعمل منذ الصباح الباكر وحتى ساعة متاخرة من الليل - كان في نظر المقاول مجرد تحملة لنشاطها المنزلي. حتى قوانين الروابط الحرافية التي كانت، على محدوديتها، تحمي عمل النساء في الورشات الحرافية، لم تحد تصرى على العاملات في البيوت. ولم تتغير هذه الأوضاع الشائنة حتى أياتنا هذه فالنساء اللواتي يعملن في البيوت يعشن إيجاثاً فاضحاً شيئاً. ولن نبالغ إذن ما قلنا عن نظام العمل المنزلي أنه نظام استغلال نعمي.

إن جانب النساء والصعرية في العمل المنزلي قد تمثل بليام العمل الطويلة من جهة، وبالأجور المنخفضة من جهة أخرى. فالمنافية المتعاظمة باطراد بين العاملات في بيوتين، وخوفهن من خسارة طلبات المقاول، عاملات لجاهن لها في حمل العاملة المنزلي المسكنة، وغير المنظمة، على القبول بليام عمل تراوح بين أربع عشرة وخمس عشرة ساعة. ولم يكن نظليها يرقع مع ارتفاع ساعات عملها، بل

كان العكس هو الصحيح، وجاء يوم اضطررت فيه إلى المتأخرة بحصتها على المكتوف، وهكذا انتشرت الدعاية بزخم غريب خارج البيوت الخاصة، وذلك في العدن التي كانت فيها الرأسمالية الوليدة قد نجحت في إرساء جذورها وتنبأت قواعدها. كثيراً ما كان أولئك المقاولون، والمهتمون، والتجار، رجال يتعذرون بالإقامة والجرأة، وقد قاموا، في سعيهم النائب وراء أسواق جديدة، برحلات استكشافية محفوفة بالمخاطر، موسعين بذلك أفق علومهم. فالبحث عن أسواق جديدة كان وراء اكتشاف القراء الأمريكية (1493)، ووراء افتتاح طريق الهند أمام العائمة الطبقية الرأسمالية التي كانت آنذاك في أوج شناطها وازدهارها أخذت على علقتها حقبة تطور العلم وحرية الفكر. فالمواقف المختلفة التي كانت تراقبت في السلفي ولادة النظام الرأسمالي، أي الجمودية والعبوبية، والإيمان الأعمى بقيم قانونية وأخلاقية بلدية، باتت من الآن فصاعداً تشكل علطاً يحول دون التطور الاقتصادي. وقد تخلصت البرجوازية الصاعدة بسرعة من هذه المفاهيم البائدة. فقرّضت دعائم قلعة الكنيسة الكاثوليكية العصيّرة وأزاحت معتنّي الكنيسة على الاعتراف بسلطان العمال. كما أنها ذهبت إلى حد التشكيك في عصمة الحبر الأعظم وإلى إعادة النظر فيها. وقد رفعت البرجوازية في الغرب الديني راية الثورة وناضلت ضد الإقطاع وكبار مالكي الأرض. ونجحت البرجوازية كذلك في فرض التصور القائل أن الرأسمالية أعنوان يكتسب من الملكية العقارية اللا مضمونة العبرة بدل الارتفاع.

لقد تراوحت مرحلة الانتقال هذه إلى نظام جيد مطلق الجنة بسلسلة من الأزمات الحادة، بدأ أنها كانت مرحلة غنية ومتلkea، وضفت هذا للأجياء القرون الوسطى المظلمة، والخاتمة، والقاسية، فبحما المختفية البشرية قواتين دوران الأفلاك، وغيرها من الحقائق الطبيعية الأساسية، انتطلق تطور العلم والفنون بيقاع سريع، ومع سقوط التقسيم الطيفي للمجتمع إلى طبقة النبلاء، وطبقة رجال الدين والطبقة الثالثة، عمركت الزرارات المكاسبية بسرعة بين أيدي أهلية، في حين عانت الغالية الساحقة افتقاراً شديداً، ولم يجد هناك سوى طبقتين رئيسيتين تواجه واحتلتهما الأخرى: طبقة الذين يملكون وطبقة الذين لا يملكون، وقد حثت ولادة الاقتصاد التقني للبلاد على استبدال المخترات البربرية بضرائب تقنية ثقيلة الورطة على كاهل الفلاحين، الأمر الذي ساهم في تفاقم تازم العلاقات بين المالكين العفاريين والفالحين، وقد رفع هؤلاء الأخيرون راية التمرد على السلالة، وتحقروا بمحنوت «الذين الجنيه»، أي باللوثرية والكافانية وغيرهما من العذاهب، فكان أن اجتاحت أوروبا مد عارم من الحروب الفلاحية، وانقسم الناس في العدن إلى فرقتين: من جهة أولى الأغنياء ومتلئو الرأسمال التجاري، ومن جهة أخرى حرفوا الطوائف المهنية والعمال العذريلين، وكانت بداية حرب خفية بين الفريقين، وكان التجار الميسورون هم الذين يشرفون على إدارة المدينة، وقد حاولوا فيما بعد توسيع رقعة نفوذهم إلى الأرياف، حيث كان الفلاحون المعلقون من إملاق شديد يسعون، بواسطة العمل العذري، إلى تغريب المال الضروري لتسديد الضرائب والأذوات المفرطة عليهم، ولم تعد الحياة سوى صراع يachsen، لا هرولة فيه من أجل البقاء، فالعلم الإقطاعي المصادر بالشيخوخة راج يتداعي، أمّا الرأسمالية فكانت لا تزال تحير وتخطي خطوطها الأولى.

لكن هناً عن وضع المرأة الاقتصادي في عصر الأزمة الاقتصادية ذاك؟ إن التغيرات الجديدة التي صدرت في القرن الرابع عشر والخامس عشر ظلت تعتبر المرأة، كما كانت عليه الحال في الماضي، كائناً فاسداً وخاصضاً للرجل، الواقع أن وضع المرأة سجل تراجعاً وتزلاجاً في عصر النهضة البلاخ بالمقارنة مع ما كان عليه في ظل أعراف القرون الوسطى وتقاليدها. ففجأاً عن مصلحة الرأسمل، حظر توزيع التروات المتراكمة وتقاسمها بين عدد كبير من الورثة، فكان أن فقدت البنات حقهن في الإرث. في عصر الفروسية كانت المرأة هي المالكة الشرعية لمهرها. وقد حرمت على عصر النهضة من هذا الحق عندما قرروا بأن كمال ما تملكه الزوجة يذهب إلى الزوج، وذلك من قبل توطيد سرورة تراكم الرأسمل. وقد صدرت قوانين لمعاقبة الداعار، لكن هذه القوانين لم تترافق عند الشروط والأسباب التي تتبع المرأة عادة إلى ممارسة حرفة البغاء. إن النظام الاجتماعي الجديد، الناجم عن استيلاء البورجوازية على السلطة، لم ينتزع المرأة من طجين القرون الوسطى ولم يدخل أي تحسين على شرط حياتها. فقد استمر استيلتها، واستغلالها، واستغلالها، وإنما يشكل حلقة لم تكون معروفة من قبل.

وتصالف في هذه المرحلة المضطربة والمتناقصة تمازج نسائية هي على طرقٍ تقصى من بعضها بعضاً فقد كان هناك، من جهة أولى، ارتال النساء الرازحات تحت عبء العمل والبعوم، والمعيرات من مalter الحقوق، والمرغمات على الخضوع لـ«محسنن»؛ وكان هناك من جهة أخرى النساء المتعطلات والمعاطلات، السابقات في أخوات الذئب والترف، واللاهات وراء شئي أنواع التسلية هرباً من السأم القاتل. وقد عهدت هؤلاء الآخرين، أي زوجات الكوئنات والأمراء المنبهكين بقتلن أنفسهن، عهدن إلى الخدم بمهمة بيوتهن وأولادهن. صحيح أن هؤلاء المتعطلات كنّ محرومات من الحقوق، أسرة بالاشتات من النساء، يبدأن ما كنّ يعانين كثيراً من هذا الاستلباد ما دام العمال والجاه يوفران لهن حياة معتمدة. وقد يقى الزواج بالنسبة إليهن قضية تجارية، صنقة مالية ليس إلا. وبما أن نفوذ الكنيسة قد تراجع، ما عادت هؤلاء السيدات يستثنن الكهنة لحل مشاكلهن العاطفية. فقد كانت هناك دروب ملتوية أخرى للانتحال على القبور. وهكذا قدم لنا عصر النهضة لوحة مبرقة من التهتك والشطط الغرامي. وقُمَّ وصَّت كتاب العصر، ومن بينهم المؤرخ والكاتب الهجلي، يوكابي<sup>16</sup>، يكتب من النقا والأمنة، وبلا أي مواربة، الأخوات اللاتي أخلاقة المسألة آذانك.

<sup>16</sup> - كاتب إيطالي من القرن الرابع عشر (1313-1375) وصف حياة بورجوازي فورنسا اللاهفين وراء العلم والعلانات، ملخص كتاب «بلجي ييكابيون» الشهير .

لقد تحولت نساء الطبقية المثلثة في عصر النهضة إلى كائنات بلا روح، إلى منافقات، متجرفات، متعظفات، مهمعن الأولي والأخرية الترفية عن الرجل. وما كانت هؤلاء المتعظفات على المجتمع يعرفن أي أمر اهتمامهن باستثناء الموضة ووسائل التسلية. ولا ريب في أن راهبات القرن الوسطى، المعهتمات «بـالحقائق الأدبية»، كنّ متعزفات يكتنفهن على أولئك النساء، كما تفوقت عليهن سيدات التصور المسؤولات عن حسن سير الاقتصاد المنزلي الإقطاعي واللواتي كنّ يشاركن بكثير من الشجاعة في الدفاع عن التصر المتعذر لوجه الأعداء.

لكن عصر النهضة لم يقتصر بالجوانب المادية فقط، ففي عصر التحولات الهاامة هذا، أشرعت الأبواب أمام الإبداع البشري في شتى المجالين، بدءاً من أساليب الإنتاج الجديدة ووصولاً إلى فتوحات العلم والفلسفة. وقد انكب العقل والإرادة البشريان على الاكتشاف والتجرّب معاً.

ولم يسبق أن ارتكبت الفردية الإنسانية القيمة التي ارتكبها في عصر النهضة، ففي الحاضر تدين اليونانية والرومانية كان يُعرف بالفرد كمواطن من مواطني الدولة لا ككائن بشري. وفي العصر الوسيط كانت قيمة الإنسان رهن لقبه ووظيفته الاجتماعية، أما البرجوازية الصناعية فقد طلبت بحق الاعتراف الت伶ى. ففي المرحلة الأولى لتراث الرأسمال، كانت ثروة التاجر أو المقاول تعتبر حسيبة عمله وخصاله الشخصية من مثابرة في العمل، وشجاعة، وتصعيم، وفورة عقل وإرادة لهذا السبب، فإن البرجوازية، التي كانت تتضع الثروة فوق الرتبة والألقاب، رفعت إلى المرتبة نفسها المواهب، والجذارات، والإيجازات الفردية المستقلة عن أصول العائلية. وقد لعبت هذه التصورات الجديدة دوراً هاماً في تحديد العلاقة بالمرأة، وإن داخل الطبقة البرجوازية فقط.

خلال هذه المرحلة الانتقالية، تعمت المرأة المغربية، المتوجهة إلى البرجوازية الصاعدة، بقدر من الحقوق وبعداً من الحريات، الواقع أنه لم يكن حظاً على النساء البرجوازيات هن أو قاتلن في الخلافات واللقاءات الاجتماعية؛ فقد أطلقت أمامهن حرية الانتخاب على الدراسات العلمية والفلسفية، وكان من وسعيهن أيضاً أن يزدن من سعة معلوماتهن بالاتصال بمعاهير فكري عصرهن، وبالمشاركة في الحياة السياسية إذا ما أردن. إن لندن كان لعصر النهضة أيضاً ر عليه من النساء القويات الشخصية، والبلغات الكلمة، وقد تراس العديد من النساء مع فانيسة وشراط عصرهن. وقد اتفق من حولهن وجوه تلقعية تشاركن آراءهن. وقد فرضن حملتيهن على الكثير من الباحثين، والفنانين، والشعراء، والنقاد، وشجعنهم في عالمهم.

وعندها ثبتت الحروب الأهلية حاربت النساء بشجاعة إلى جانب الرجال، وذلك في صحف الفرقين المقاتلين على حد سواء، كما شاركن في الحروب الدينية، التي أضرمت النار في أوروبا من أقصاها إلى أقصاها، والتي كانت مهور المسراع بين الإقطاعية والبورجوازية. وكثيراً ما كان يثن دهشة أعدائهم بشدة مقاومتهن وفقرة صمودهن. إن حروب القرن السادس عشر الأهلية (أعني حرب الكالفينيين البورجوازيين ضد النبلاء الكاثوليك في فرنسا، وصراع اللوثريين ضد أنصار الكنيسة الكاثوليكية في المانيا، وحرب الكاتلانية والبروتستانت في إنكلترا، الخ)، إن هذه الحروب كثيرة ما نجحت في انتزاع النساء من بيوتهم وفي تفعين إلى سلطات القتل. ولم يجازفن بفقدان أملاكهن فقط بل تعرضن أيضاً للمجازر، والسبعون، ولتصاعد إلى المحرقة جنباً إلى جنب مع الرجال من «البراطلة».

ولم تتناهى النساء عن التضليل أمام إعصار الحروب الأهلية، فقد انتصرت غريزتهم الطبقية على سلبيةهن، وعلى خضوعهن واستسلامهن التقليدي، وتجدر الإشارة إلى أن الرجال الذين كانوا قد أكثروا في السابق أن مكان المرأة الطبيعي هو في بيتهما، وإلى جانب أولادها، راحوا يطالعونها بالالتزام وبالانخراط في زوجية المصراعات الاجتماعية والسياسية.

لقد كان للمصلحين الظبيين (لوثر، وكالفن<sup>17</sup>، وزويني<sup>18</sup>) زوجات لا يكتفين على الإطلاق باهتماماتهن وأعمالهن المنزلية كمن أيضاً تلمذات لأزواجهن وأكثر أنصارهم حملاً. وقد لعبت المرأة في كل حال دوراً هاماً في حقبة الإصلاح الكاثوليكي. فحركة الإصلاح، التي حاربت سلطة الإقطاع، ثقت الطريق أمام صعود البرجوازية. وقد انتصرت زوجات كبار المسؤولين في البلاط للديانات الجديدة. وكان يحصل أحياناً أن تتquin الملكات مثـا بخدمات ونصائح كهنة بروتستانتـن، أي بابليو لو جي البرجوازية. وقد ساعدن على نشر الديانات الجديدة، وبشاركن في المؤامرات والاحتفاعات المرورية، وأثنـان أطفالـن وفق عقـلية الطبقة الجديدة. وقد دلت النساء، في اعتقادهن لل Madonna الجديدة، على حمية واندفاع إفتقـدهـا الرجال. وقد حررن المقالات نقـاعـاً عن البروتستانتـية، وواجهـن عذـابـات محـاكـمـة التـقـضـيـة، سـطـولـة شـهـادـة السـجـحةـ الأولىـ، وزـرـ عنـ حـصـودـهـن الشـحـاعةـ، فـلـوبـ الضـعـفـ، وـالـعـتـدـ لـهـنـ.

<sup>17</sup> - جان كالفين: المصلح ديني فرنسي (1509-1664)، نشر البروتستانتية في فرنسا وسويسرا، ونظم في حيف جمهورية أورنافاطية، والكافلانية كهدبة دعت إلى الرجوع إلى البساطة المسيحية الأولى، وعبرت كما قيل إنجلز من «أثراً لقطاعات البروجازية في ذلك العصر». -م-

<sup>18</sup> - نورليش زويتنلي، مصلح بنى سوري (1484-1531)، طلب بالمردة إلى نص الكتاب المقدس وحده، وإلى استخدام اللغة الألانية في الطقوس الدينية، ورفض سلطان بابا روما لقى مصرعه في الحرب التي نشب بين الكفرنات الكاثوليكية والكفرنات البروتستانتية في سوريا. -

الموتو في عام 1682، كان مؤسس هذه الطائفة الروسية، أمًا فليمين، ابنة ملك بوهيميا، والتي أسمت هي الأخرى طائفة نينية، وكانت تعتقد بأن روح القدس قد تجلست فيها. وبعد أن حصلت على تقالة واسعة ومتينة، غادرت بالذات قاصدة ميلتو حيث استطاعت، بفضل بلاغتها الكلامية، أن تكتسب العيد من الأنصار، من بينهم كهنة، ورہبان، بل أساقة أيضًا. وقد أطلق على طلاقتها اسمها بالذات، فليمين، لكن بعد وفاتها أحرق جسدها بغير من الخبر الأعظم.

وفي فلورنسا ظهرت شيعة أخرى، عرفت باسم كاترين، وقد أسمتها سيدة من فلورنسا اشتهرت هي الأخرى ببلاغتها الخطابية، وقد قال عنها الموزرخون وكتاب الحوليات: «إن كلامها البليغ جعل الأنصار يلتقطون من حولها».

لقد كان للنساء وقذاك تأثير ملحوظ على السياسة، ولكن اعتقاد بعضهن الآخر، بحسبية وعذاد مماثلين، عن العبدان والامتيازات الراسخة للطبقة الإقطاعية، وقد مارست النساء، بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، تأثيراً مباشراً تارة وغير مباشر طوراً، على الحياة السياسية الفرنسية. ونخص من بينهن بالذكر الملكة الراكيه والملاكرة كاترين دو مدشى<sup>19</sup>، المنتصرة للدين الكاثوليكي، وهيكيكة النساش بلا ضمير ولا رحمة (كاترين دو مدشى هي المسؤولة عن هجوم ليلة القدس ببرتيليفي التي لفت فيها بالبروتستانت في فلورنسا غداً)، وكذلك الملكة آن دوقريش<sup>20</sup> التي نافت الكربيجال دو ريشوليوا<sup>21</sup> على سلطته الائحة.

ومنه ملوكان، هنا الرايسيت ملكة إنكلترا، وماري دي ستوارت ملكة سكوتلند، تزعمتا فريقين متذارعين: فريق إسكونتنا الإقطاعية والمتخلفة من جهة، وفريق إنكلترا التقافية والمحضنة من جهة أخرى، وفي روسيا، وقت الأميرة سوفيا، ابنة القيس الكسي الأول، وشقيقة بطرس الأكبر، وراء المؤامرة الراعية إلى المسؤول دون الحد من امتيازات النساء الإقطاعيات.

والواقع أن النساء في عصر النهضة والإصلاح البروتستانتي لم يكن لهن بممارسة السياسة والمشاركة في الحروب الأهلية. بل تخططن السياسة والحروب ليمارسن تأثيرهن على العلوم والفنون والفلسفة. وكانت إيطاليا في تلك العصر مهد الاكتشافات الخارقة، ووطن المفكرين والعلماء الذين عرفت أعمالهم رواجاً منقطع النظير. فبفضل الموقع الجغرافي المعزز لهذا البلد، أمكن للرأسمال التجاري فيه أن يتطور بسرعة فائقة، جاز في أعقابه الرسائل الصناعي أيضًا. وقد ظهرت المصانع اليدوية الأولى في العلن الإيطالية المزدهرة منذ مطلع القرن الثالث عشر. وفي بلا منظور اقتصادياً كإيطاليا، كان لا بد أن يتوازن بسرعة تفؤد البورجوازية، وأن تكون النساء اللواتي نجحن في انتزاع الشهرة بفضل أعمالهن التكعيبة أو الفنية عن أن يكن استثناء.

وبالفعل، ذهب العيد من الموزرخون إلى إطلاق اسم عصر «النساء العلامات» على عصر النهضة. ومن بين هؤلاء النساء العلامات، اللواتي ذاع صيتهم في ذلك العصر، أولئك موراتورو، ابنة أستاذ في فرارى وكانت أولئك من أعز صديقات رينيه دى فرارى، التي كانت من أوائل أنصار الإصلاح البروتستانتي. وقد اشتهرت أليبيا هي الأخرى الدين الجديد، وتزوجت من عالم، وعادت معه من الحروب الأهلية، وتنكر أيضاً لـ إيزوتا توغارولا التي ذاع صيتها بلاغتها في شتى أرجاء إيطاليا، والتي اعترف لها بها البابا بشخصه بما أولاه من اهتمام على محاضراتها.

وكانت هيبوليت سفورة ترعى الآداب والفنون وتعارض العمل السياسي. أمًا فيتوريا كولونا، التي كانت تربطها صدقة قوية بالفنان ميكانتشو، فقد مارست تأثيرها على أعمال الفنان الكبير. وكانت فيتوريا تتمتع بإعجاب وتقدير معاصرتها الذين نقلوا عنها صورة الإنسنة الراكيه، المشعة جلالاً وجعلاً. وفي تلك العصر عينه برز في إسبانيا اسماعيل الراهوت، إيزابيلا دو كولون وجوليانا موروبالي. أمًا إنكلترا، التي تأخرت نهضتها، فقد اشتهرت في القرن الرابع عشر بثقافة نسائها وعلمها. فملكات إنكلترا كن يجدن اللاتينية إنما إجلالة، وثقافة الذي جن غرائى كانت معروفة لدى الذانى والقصانى. وقد اشتهرت أم الفلسوف يكن، ابنة أستاذ الملك هنرى الثالمن، بثقافتها العلمية الخارقة، وكذلك ماريا سيدنى، ابنة الطوباوي مور.<sup>22</sup> وقد اشتهرت مارغريت دو نافار، ملكة فرنسا، كواحدة من كتابات العدرسة الإيطالية. وقد احتفظت مراسالتها ببعض الأهمية حتى أيامنا هذه، أمًا أن داسيني<sup>23</sup>، ابنة أحد الفلاسفة المعروفين بسبعة علميه، فقد ترجمت أعمال هرميون وأشادت دراستها وأبيتها بالبعد الشامل لمعاهدى «الأكليان» و«الأرنسي».

<sup>19</sup> - كاترين دو مدشى (1589-1619) زوجة ملك فرنسا هنرى الثاني، ووالدة الملك فرانسوا الثاني، وشارل التاسع وهنرى الثالث. -

<sup>20</sup> - آن دوقريش (1601-1666) زوجة ملك فرنسا لويس الثالث عشر، والدة لويس الرابع عشر. -

<sup>21</sup> - ريشوليوا (1585-1642) رجل دولة فرنسي، وأسقف وخطيب، وال歇 الإله البروتستانت، وصانع الحكم الملكي المطلق في فرنسا، وعشى الأكاديمية الفرنسية. -

<sup>22</sup> - توماس مور: فيلسوف إنكليزي (1478-1535) من رواد المذهب الإنساني والعلقاني في عصر النهضة، ومن مؤسسي الاشتراكية الطوباوية، وله كتاب «العدالة الفاضلة». -

وكانت النساء المعتقدات يتعلمن، حسب ما يقال، بغير من الجاذبية. لكن مولير خصم بعمل هجائي. فصر راصديه، سخر فيه من النساء الشغوفات بالعلم واعتبرهن من المتعطلات.

فيما يتحقق ببطاليا بشكل خاص، فإن عصر النهضة تميز بارتفاعه ثقافي عام للمرأة. ولا يسعنا أن نرد هذه الظاهرة إلى الموضة أو الحماسة فحسب. فئة أسلوب اقتصادية واجتماعية خاصة حدت بذلك الأعداد الكثيرة من النساء إلى السعي، بواسطة العلم والمعرفة، وراء حياة مستقلة. فالحروب الأهلية، وإنها شرط الإنتاج السائد، أضحت من مقاومة المؤسسة العائلية. وقد زج مد التورة الاقتصادية بأعداد متامة من النساء من بنات الطبقات الفقيرة والمعدمة فحسب، بل كان بعضهن ينتهي أيضاً إلى البروجازية، وأحياناً إلى طبقة النبلاء. نساء الفلاحين وزوجات الحرفيين عملن على الصناعة المنزليّة. أمّا نساء الأسر الكريمة فقد اعتمدن على علمين وتأهيلين للأخذ بهمهنة علمية أو أدبية تضمن لهن الاستقرار العائلي. وكانت العيدات من النساء الشهيرات من بنات أسلطة وكتاب وعلماء لا هوت، وعلماء. وكان هؤلاء الآباء قد حرصوا على تزويد بناتهم بالفضل سلاح لمعركة الحياة، لأنّه هو سلاح المعرفة. في ذلك العصر المضطرب، لم يجد الزواج يشكل الضمانة الكافية من أجل تأمين حياة استقرار. فقد كان على النساء أن يأخذن حيطهن من الفقر والخلاقة العالية، وأن يتبنّأن لكتب جياتهن بامكانيّتهن الخاصة. كان من الطبيعي إنّ أن تسعى النساء وراء معرفة أوسع، وأن يطلبن بالمساواة في الحقوق. وقد ذهبن أحياناً إلى حد التنكيد، في الدفاع عن حقوقهن، بين الطبيعة المُؤشّرة متفوقة على الطبيعة المُنكرة. ومنهن روجن لهذا التصور في فرسا في القرن الخامس عشر كريستن دو بيزان (مؤلّفة قالت الوردة وهي مجموعة من القصائد موجّهة ضدّ الجزء الثاني المناهض للمرأة من كتاب «حكاية الوردة»<sup>24</sup> و«مدينة النساء»).

وفي القرن السادس عشر تبنّت الإنكليزية ماري استيل مواقف أكثر عدائية بعد في تضليلها من أجل حقوق المرأة. ففي كتابها الرائع *نفاعات عن المرأة الذي أذاع شهيرتها*، طلبت بالمساواة بين الجنسين في ميدان التعليم. أمّا الكاتب الإيطالي تومازو كامباريللا<sup>25</sup>، الذي دافع بعمق عن أفكاره، فهو لم يكتف في مدحه الطبوبيّة حاضرة *النساء* بالدفاع عن حق المرأة في التعليم، بل طلب بالاشراكها في سائر العين دونها استثناء. فالمرأة، كما يقول، «لابد أن تساهم في سائر شؤون العرب والمسلم».

\* \* \*

لقد بدّت هذه المطالب مقبلة ما دامت قد طرحت في زمن الحروب الأهلية، وفي وقت كانت فيه البروجازية في حاجة إلى المرأة لخدمة أهدافها السياسية الخاصة. لكن لما كانت هذه الأفكار لا تتطابق مع تصورات البروجازية، ولا تتاسب مع مصالحها الاقتصادية، فسرّ عن ما تحدثت تضليل النساء في سبيل المساواة بالطبوبيّة ووضعيّته موضع هزء وسخرية. فقدرة الأسرة على مقاومة العالم الخارجي كانت دعامة ثروة هذه الطبقة. لذا ما أن انتفع دخان معارك الحروب الأهلية حتى نفخت البروجازية عنها ببرودة كل ما هو غريب عن رؤاها ومقاهيها.

وأخذت نساء عصر النهضة المعتقدات والسيّمات من جديد في دراما أعمالهن المنزليّة. وترافق هذا الانزواء داخل قوقة الأسرة الضيقه باستثناء النظام الاقتصادي الجديد وينظر الرأسمال الصناعي. لكن كيف نصر ذلك؟ كيف نخل موافقة النساء على العودة إلى طناجرهن وموالاهم في أعقاب مرحلة شهدت تارجح شاطئين في شتي ميللين المجتمع؟

\* \* \*

نعم نعلم أن حقوق المرأة ووضعيّتها في المجتمع هما رهن مشاركتها في العمل المعنّج. وفي عصر النهضة ظلت المرأة في معظم الأحيان تابعة لزوجها أو لوالدها، أي ظلت تعيش على نفقه رب الأسرة. فالنساء اللواتي سعن وراء حياة مستقلة كنّ فلة لا كثرة، ولا رب في أن عدد النساء الفقيرات اللواتي خضن تجربة العمل كان مرتفعاً، لكن مع ذلك نجد أن غالبية الفلاحات وزوجات الحرفيين قد قضلن العيش في ظل أزواجهن وعلى نخل هؤلاء الأزواج.

<sup>24</sup> خطاب من كوليوني، لأن داسيه (1720-1651) هي جوجة وليس ابنة لكريه داسيه، فقيه اللغة الفرنسي (1722-1651)، مترجمة فرمبروس إلى الفرنسية وتحسيرة المحظىين في صراعهم مع الملقيين. -

<sup>25</sup> - حكاية الوردة : قصيدة مطرولة مؤلفة من قسمين: الأول يروي قصة حب رمزية وهو من تأليف غيوم دي لويس (حوالي 1236)، والثاني هجائي وتنطوي من تأليف جان دي مونغ (حوالي 1280). -

<sup>26</sup>- تومازو كامباريللا: فيلسوف إيطالي (1568-1639)، حارب السكرابلين، اضطهد، ديران التفتيش، وأمضى 27 عاماً في السجن، وكان من رواد الاشتراكية الطبوبيّة في كتابه *حاضرة النساء*. -

لقد طالت بنا محاضرتنا اليوم أكثر مما كان متوقعاً، وأأمل أن تكون قد تكونت لديك فكرة عن مرحلة نشوء الرأسمالية العجيبة، لكن قبل أن ننتقل إلى المرحلة التالية وشرع بتحليل شروط حياة المرأة في ظل ازدهار الصناعة الكبري، لا بد أن نتوقف قليلاً عند إطلي مميزات المرحلة التي نحن بصددها، أي عند تطور الصناعة المعملية *Manufacture*.

إن الصناعة المعملية، المبنية عن الصناعة المنزلية، لم تكن في الواقع سوى اجتماع عمل منزلين تحت سقف واحد، بعد أن كانوا مشترين مبغضين، ومع حشد عدد من العمال في مكان واحد أضحي من الأسهل تزويدهم بالمواد الأولية التي يحتاجون إليها في عملهم، وجمع تناسق هذا العمل تصريفه، وقد اكتشف الرأسمالي فيما بعد أن في وسعة زراعة الإنتاجية عن طريق تقسيم العمل أكثر عقلانية، وهكذا شهدت المعامل أو المصانع اليدوية ولادة تنظيم عصري للعمل، وأنوبي التقسيم الجديد للعمل إلى تبسيط سيرورته وتسييلها، وقد جوَّد هذا التقسيم إلى حد بات العامل معه يُؤدي، طوال سنوات، عملية محورة واحدة كمنفذ الإثارة مثلما كان عمل الحرفي محفزاً ويقتضي براعة مهنية، فإن شغل العامل في المعامل أو المصانع اليدوية كان على العكس بسيطاً للغاية ولا يتطلب أي معرفة خاصة، فقد كان في وسعي أي كان أن يتعلم، في فترة زمنية قصيرة للغاية، العمل المجزأ المطلوب منه، وبالتالي لم يعد الإعداد المهني يقوم بأي دور على الإطلاق في الورشات.

كان من الطبيعي إن أن تستقطب المصانع اليدوية النساء اللواتي لا يتعدن بأي تأهيل مهني، لكن هذه الفرصة التي أتيحت للنساء لتبليغ حاجتهن عن طريق العمل، انتقبت عليهن، فقد حكم على المرأة، طوال حصر الصناعة المعملية (والصناعة المنزلية)، بأن تظل قبيحة بيتها المظلم والخافق، لتؤمن حاجة السوق العالمية من الكملات وسلع الاستخدام اليومي، وكانت تعملليل نهار على منتجها، أو في الخياطة، أو في دباغة الجلود، وكان محظىاً عليهن أن تصل إلى هذه الشروط القاسية كي يستطيعن عملها منافقة الاتصالات المهنية الاحتقارية - تلك التطبيقات الاستقراطية المعقونة في عالم العمل، ولهذا السبب ناضلت العاملات المنزليات الفردية بضراوة من أجل إلغاء هذه الاتصالات، وعندما اختفت هذه الأخيرة في عام 1791، عمت الفرحة الأرضيات البروليتارية التي رأت في هذا الحدث خطوة أولى على طريق التحرر الاقتصادي، لكن التغيير الطارئ على الحقوق الاجتماعية جرف قوى الإنتاج في اتجاه جديد، فاحتكر الاتصالات الحرافية كان قد نفع بالنساء إلى بيوتهن، ولم يخرجهن منها إلى زيد بين في ميدان الإنتاج من حيث سوى استخدام البخار في الحقل الصناعي.

لقد تطورت الصناعة المعملية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، وفي روسيا كان بطرس الأكبر أول من أدخل الإنتاج المعملي والصناعي، فقد رأت أول العامل الروسية الثور في القرن السابع عشر، كانت تتبع الزجاج، والأقمشة الصوفية والقطنية، وكان المقاولون يستخدمون الأقنان إلى جانب العمال الم��وريين، وكان العمل النسائي مجبراً كلباً في المصانع الروسية، فقد كانت النساء يعملن في حقول اقتصادية أخرى لا ظازمهن بالغيب الكامل عن بيوتهن، فإن لم تكون للمرأة بيت وأسرة، اختارت الخدمة في «بيوت السلامة» أو التجلت إلى الدين، لكن في أقطار أخرى كانت فيها الرأسمالية أكثر تأصلة وأعمق جذوراً، مثل إنكلترا وفرنسا وهولندا، ابتعدت الصناعات المعملية تماماً ضيقمة من النساء، لقد سطر عصر الصناعة المعملية على كل حال صفحات سوداء في تاريخ المرأة.

لكن في الوقت الذي بدأت تتكبرن فيه طبقة العمال الم��وريين، أي طبقة البروليتارية، واجهت المرأة انعطافاً جديداً في تاريخها واستعدت لمكبلة اضطهاداً مثلثاً، عدم الاعتراف بحقوقها من قبل الدولة والمجتمع، استغلالها واسترقاقها داخل أسرتها بالذات، واستغلالها بلا رحمة من قبل النظام الرأسمالي، فقد ولدت الأيام التي كانت فيها المرأة تعم باحترام المجتمع وتقتربه يومياً صناعة حرفة حرة وغضروا في رابطة مهنية، وقت ساعة استبعاد المرأة من جديد.

الزوجات المعنونات للحرفين، والفاتحين، والتجار الأغنياء، كان يبدون عن ازدراء سافر حيال عاملات المصانع اليدوية، «بنات المعامل»، السوقيات أولئك، ولكن يعتذرنهن حالة المجتمع ولا يعزن بينهن وبين العاهرات، وهذه البؤس الأسود إذن كان يرغم النساء على البحث عن عمل في المصانع، ذلك أنه كان عليهم أن يتعلمن الخزي والعار علنة على شقاء العمل في المصانع اليدوية، لكن كيف أمكن ذلك؟ كيف تغير ظاهرة انتشار عاملات يساعدن في النهيلة على زيادة نقل الأمة وتروتها، وظاهرة احترام النساء لا يؤمنن سوى مهام منزلية غير منتجة؟

هذه الظاهرة لا مغولة تجد تفسيراً لها في انتهاء النساء اللواتي يقصدن العامل للعمل إلى طبقة العبيد الم��وريين التي هي في خدمة الرأسمل، إلى البروليتاريا المحتركة من قبل العالم البرجوازي، وهذا وضع يتطابق كلباً مع ذلك الذي كان سائداً في اليونان القديمة، حيث كان المواطنون الآخرين يحتقرن العبيد الراضخين، وفي ظل سيطرة الرأسمل وسلطنة الملكية الخاصة، لم يعد صانعوا البضائع الاستهلاكية هم الذين يحظون بالاحترام والتقدير، وإنما الذين يمكنون من تكتيسن تلك البضائع، «فليس العامل هو الذي يفتح الثروة القومية بيديه، وإنما المقاول الرأسمال يفتح الباب، وبقدرة بصيرته، وبمهاراته». فـ«منظم» العمل و«منتفع» هو الذي كان يحظى باحترام الجميع، لكن ينبغي ألا يفوتنا أن النساء اللواتي كن يساهمن في الإنتاج، في حصر الصناعة اليدوية، كنْ أقليَة، فالنساء اللواتي كن يضطربن إلى بيع قوتهن، ويسقطن فريسة مخالب الرأسمل، ما كنْ يشكلن بعد ظاهرة تعطية، وكانت هؤلاء النساء يحضن أنساناً على أهل العودة إلى بيوتهن وحصر اهتمامهن بها أسوة ببقية نساء عصرهن، يد أن هذا الأمل لم يتحقق بالنسبة إلى معظمهن، فقد تدعم الإنتاج الرأسمال وفرض نفسه على نحو تهلي.

كان على المرأة من الآن فصاعداً أن تكتيد أيضاً من استبدال المقاول الرأسمال، بالإضافة إلى معاناتها في فقدان الحقوق في الأسرة وفي المجتمع، لكنها في الوقت نفسه شهدت ظهور الشروط اللازمة لتحريرها التهلي، فتحة مرحلة تاريخية جديدة قد أطلت، مرحلة ارتبط فيها مصير المرأة ارتباطاً وثيقاً بعصر الطبقة العاملة، فعملها، الذي طالما غير حقه وانتقض من قيمته، بات يتعذر بقيمة جديدة

بالنسبة إلى الاقتضاد القومي، ومساواة المرأة مع الرجل، التي نسيت طوال قرون، أصبحت من مطالب النضال المشترك للطبقة العاملة من أجل الحصول على حقوقها، ومن أجل تتحقق سيطرة البروليتاريا. إن نعم الإنتاج الاشتراكي، الذي يعني النساء كافة من أجل العمل المنتج، هو اليوم الاعادة الأكيدة لتحريرهن الكامل والشامل في المستقبل.

وعدد هذا [الحد](#) تنتهي محاضرة اليوم.